

طومان باي

آخر سلاطين المماليك

إعداد : أسامة حسن



طومان باي

آخر سلاطين المماليك



الناشر:	دار الأمل
العنوان:	٨ ش عبد العزيز حامد - أول الملك فيصل
تليفون:	٥٨٦٠٨٩٢
رقم الإيداع:	٩٩ / ٩٩٠٣
التراقيم الأولى:	5 - 59 - 5823 - 977
طبع:	مطابع الوادي الجديد
العنوان:	دار السلام
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر	
غلاف:	مجدى الطويل
جمع تصويري:	أرمس للكمبيوتر
العنوان:	٣٢ ش على عبد اللطيف - مجلس الشعب
تليفون:	٧٩٦٤٤٠٤
الطبعة الأولى:	١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م

طومان باي

آخر سلاطين المماليك

إعداد : أسامة حسن

دار الأمل

للنشر والتوزيع

العنوان : ٨ شارع عبد العزيز حامد - أول الملك فيصل - جيزة .. ت: ٥٨٦٠٨٩٢

الممالك فى مصر

بعد أن أقام صلاح الدين الأيوبي دولة موحدة تمتد من طرابلس غرباً حتى الفرات ودجلة شرقاً ، فضلاً عن امتدادها إلى الحجاز واليمن فى الجنوب ، ولكن الدولة سرعان ما تمزقت بعد موت صلاح الدين :

وترك صلاح الدين سبعة عشر ولداً ذكراً بالإضافة إلى الأخوة وأولاد العم ، وأدى ذلك إلى وقوع خلاف بينهم ولم يقنع أحد بما فى يده ، وكونوا إمارات متشاحنة وكل واحد منهم جعل له وصياً أو أتابك على أبنائه وهذه هى الطريقة السلجوقية السائدة فى هذا العصر ، ولكن الأتابكة سعوا إلى مزيد من السيطرة وأدى ذلك إلى مزيد من التشاحن فيما بينهم ، وكان أقوى أفراد الأسرة الأيوبية هو من يتولى حكم مصر وكان يعرف بالسلطان ، وكان السلطان يعتمد فى تأييد نفوذه على الممالك .

وكلمة مملوك فى أصلها اللغوى من الفعل ملك وتعنى الرقيق ، وهو من يشتري بقصد التربية والاستعانة بهم كجند وحكام ، وذلك على عكس العبيد ولفظة العبيد تعنى العبودية والعبد يولد من الرقيق بينما المملوك يولد من أبوين حرين ويباع .

وظهر نظام الممالك بوضوح على يد الأيوبيين فى مصر إلا أن ذلك يرجع إلى قبل ذلك فى عصر الأمويين ومن بعدهم العباسيون الذين توسعوا فى شراء الممالك من وسط آسيا وبذلوا فى ذلك المزيد من الأموال .

وأدى ظهور المغول إلى الإكثار من شراء الممالك فى عصر الأيوبيين وزادت أعمال تجار الرقيق فى مصر وحصل تجار الممالك على المزيد من الربح ؛ نتيجة

لكثرة المشاحنات بين ملوك الأيوبيين، وكان سلطان مصر الأيوبي يشتري منهم الآلاف، وكان المملوك إذا كان صغيراً أعطى للحریم لتربيته، وإذا كان شاباً قوياً يعلم ويعيش فى القصر مع سلطان البلاد ثم يعتق، وكان السلطان يقوم بالإشراف على تربية المماليك مما جعلهم يتميزون بالأخلاق الكريمة.

وقد سنحت الفرصة للمماليك فى مصر فى آخر أيام الأيوبيين ليحكموا البلاد بدلاً من الأيوبيين، وذلك عندما جاءت حملة لويس التاسع واستطاع المماليك هزيمة الحملة وأسر ملكها، وأصبحت الدولة فى قبضة المماليك، وما لبثوا أن قتلوا توران شاه آخر سلاطين الأيوبيين وهو ابن الملك الصالح أيوب، وقيام دولة المماليك هو أحد نتائج الحملات الصليبية الأولى وكذلك حروب المغول، وانتصار المماليك فى جولات كثيرة على المغول مثل موقعة عين جالوت ودفاعهم عن الإسلام بحماس لا مثيل له وطد أقدامهم فى حكم مصر والشرق الإسلامى.

ومع دخول المغول العراق بقيادة هولاكو وقتل آخر خليفة عباسى فيها فإن المماليك سعوا إلى إحياء الخلافة العباسية فى مصر وأصبح الخليفة نفسه تابعاً لسلطان المماليك وكان عمل الخليفة هو إصباغ الشرعية على حكم السلطان وجعل السلطان فى نظر المسلمين جميعاً حامياً للشرعية الإسلامية.

مع سيطرة المماليك على الحكم أدى ذلك إلى الإكثار من طبقتهم، وكثر نشاط تجار المماليك وكان معظمهم من الأوربيين النصارى أو من اليهود، وكان بعضهم من الإيرانيين، وكان هؤلاء التجار يأتون بالمماليك فى أغلب الوقت عن طريق البحر حيث يدخلون إلى القاهرة عن طريق ثغرى دمياط والإسكندرية وكان السلاطين يستقبلون التجار كما يستقبلون كبار الشخصيات ويمنحونهم الخلع.

وكان المماليك فى العادة يشترون وهم صغار السن ويوضعون فى أماكن خاصة تسمى بالطباق أو الأطباق مفرداً طبقة أو طبق وهى المدارس العسكرية وتوجد فى أماكن متفرقة فى القاهرة وخارجها وبلغ عددها اثنى عشر طبقاً أو أكثر، وكان

بعضها يسع ألف مملوك ، ويسكن الممالك الطباق، ويتعلم المملوك الخط والقرآن والشرع، وبعد سن البلوغ يتعلم الحرب وضرب السيف ورمى السهم والفروسية، وكان الممالك لهم اهتمام خاص بكرايم الخيل يبعثون فى طلبها من كل مكان وأقام الممالك مباريات الفروسية أمام السلطان والأمراء، وظهرت أنواع من الفروسية مثل السباق بالخيل دون سرج، ولعب الكرة على ظهور الخيل بضربها بالصولجان وهى العصا أو حتى لعبة اسمها القبق، والقبق اسم تركى لنبات القرعة الصلبة.

بالإضافة إلى ما سبق فإن الممالك كان يشرف عليهم متخصصون فى الفقه ويعود الممالك على الصلوات والأذكار، حيث كان التصوف منتشرًا بين الممالك، وكان الإشراف العام على الطباق لشخص يسمى مقدم الطباق وله الحق فى معاقبة الممالك.

وكان تعليم الممالك يخضع لنظام دقيق مرتب فليس لهم أن يخرجوا من الطباق إطلاقًا، أكلهم اللحم والأطعمة والفواكه والحلوى ويذهبون إلى الحمام مرة كل أسبوع ويتسلمون كسوات فاخرة ويؤخذون بشدة فى حركاتهم وسكناتهم، فإذا اقترف أحدهم ذنبًا أو خرج على النظام أو الآداب قبل ذلك بعقوبة شديدة، وكان السلطان يتفقد أحوال الطعام والمبيت وغير ذلك.

والدراسة فى الطباق تستمر ما يقرب من أربعة أو خمسة عشر شهرًا، وإذا انتهت الدراسة أعتق المملوك، ويكون العتق لهم جملة ويعد له احتفال خاص يحضره السلطان والأمراء، ويسلم المملوك سلاحًا وفرسًا ولباسًا خاصًا وإقطاعًا يبقى له مدى الحياة.

وقد ظهرت فى مصر دولتان للممالك: الأولى الممالك البحرية (٦٤٨ هـ - ٧٨٣ هـ)، وهى تسمية نسبة إلى أن غالبية سلاطينها من الممالك الذين اشتراهم الأيوبيون وأسكنوهم قلعة فى جزيرة الروضة بالمنيل بالنيل ونسبوا إلى هذه القلعة البحرية التى كان الملك الصالح الأيوبي قد بناها لهم وكان أغلب عناصر الممالك البحرية من التركمان أو التركمانية.

والثانية دولة المماليك البرجية (٧٨٤ - ٩٢٣) وهى تسمية نسبة إلى أن غالبية سلاطينها من المماليك الذين كانوا يسكنون بروج القلعة على جبل المقطم وقت حكم المماليك البحرية.

ويعتبر قلاوون البحرى أول من استكثر هذا النوع من المماليك، فلما ضعفت قوة البحرية قام بانقلاب عسكرى ضدهم واستولى على زمام الحكم. وقد كان أبرز عناصر المماليك البرجية من الجركس أو الشركس وتعنى القوقاز.

وهكذا استمر المماليك فى الحكم سلطائاً بعد سلطان، وكان آخرهم طومان باى.

* * *

طومان باى سلطان

لا توجد معلومات عن أصوله الأولى ولا يعرف المكان الذى نشأ فيه، ولكنه من بلاد الجركس الذين هم من أصل عربى، وأنهم ليسوا من الأتراك الخالص ولا يعرف إذا كان اشترى من أسواق مصر أو خارج مصر، ولكن الأمير قانصوه قد اشتراه لقربائه، وكان يطلق عليه طومان باى بن قانصوه ولكن من المؤكد أنه لم يكن ابنا له ويقال: إنه ابن أخيه.

ولكن من المؤكد أنه ولد عام ٨٧٨ هـ / ١٤٧٣ م وشنق فى سن أربعة وأربعين عامًا فى يوم الأحد ٢١ من شهر ربيع الأول من سنة ٩٢٢ هـ / ١٥ سبتمبر سنة ١٥١٧ م .

وأعتق طومان باى مع زملائه من المماليك بعد أن تعلم وتشقف وتهذب فى الطب، وأعتق فى عصر محمد بن قايتباى الذى تولى فترة قصيرة قبل أن يتولى السلطان قانصوه الغورى فى ٩٠٤ هـ / ١٤٩٨ م الذى كان قريبه، ويوصف طومان باى بأنه متوسط الطول، ذهبى اللون واسع الجبين أسود العينين والحاجبين واللحية.

تولى طومان باى الوظائف الكبيرة حيث تولى العديد منها لمدة طويلة قبل أن يتولى سلطنة البلاد.

وأولى الوظائف التى تولها وظيفة «أمير جمدار» وهى لفظ فارسى بمعنى المسئول عن ملابس السلطان ثم تولى وظيفة «أمير عشرة» بمعنى أنه أصبح تحت إمرته عشرة ممالك على الأقل وعدد كبير من الأجناد لا تقل عن ألف، ثم تولى رتبة أكبر وهى «أمير طبلخاناه» بمعنى أنه أصبح تحت يده عدد من المماليك لا يقل عن أربعين وله حق دق الطبول تشريفًا له وتحت إمرته عدد كبير من الأجناد.

وبعد ذلك تولى منصب شاد الشراب خاناه وهو أمين على الخزانة أو البيت السلطاني، والخزانة تحتوى على أدوات الصيني والكيزان وطاسات نحاسية كما توضع أنواع الأشربة والحلوى والفواكة والسكر والأدوية وتولى بعد ذلك وظيفة الدودار الكبير وهو اصطلاح يعنى من يحمل دواة السلطان وكان عمله يحمل طابعاً سياسياً وإدارياً وقد أظهر طومان باى كفاءة نادرة فى هذه الوظيفة، وأضاف إليه وظائف متعددة أخرى منها منصب إستادار العالية، ووظيفته الإستادارية العالية وهى لفظة فارسية تعنى المشرف على جميع البيوت السلطانية أو الخانات حيث تعددت هذه البيوت وبلغت درجة من الغنى كبيرة، بالإضافة إلى الإشراف على بيوت الطست خاناه التى فيها ثياب السلطان، والفراش خاناه التى فيها المفروشات والخيام، والسلاح خاناه التى فيها أنواع السلاح، والركاب خاناه التى فيها ما يتعلق بالخيول من معدات الركوب، والطبلخاناه التى توجد فيها الآلات الموسيقية والشكار خاناه وهى بيوت الطير وكل ما يتعلق بها وبخاصة تلك التى تستخدم فى الصيد.

وأضاف السلطان قانصوه إلى طومان باى كاشف الكشاف المتعلقة بالشئون الزراعية مثل شق الترع وإقامة الجسور وكان تحت يده خمسة من كبار الكشاف ثلاثة بالوجه القبلى، واثنان بالوجه البحرى غير أعداد لا تخصى من الموظفين الذين يتعلق عملهم بالأرض مثل القياسين أو المساحين والكيالين والشيالين الذين يحملون الإنتاج الزراعى فى السفن إلى القاهرة.

وأضاف إليه السلطان منصب نائب الغيبة الهام على أساس أن يقوم مقامه فى غيبته عن البلاد وهو مثل نائب السلطنة وبعد أن تولى المنصب أصبح على رأس رجال القصر والدولة، وله الحق فى تعيين الأمراء فى المناصب الكبرى ومنح الإقطاعات، وله الحق فى النظر فى المظالم .

أظهر طومان باى المزيد من الكفاءة حيث حافظ على البلاد فى غياب السلطان وحافظ على الجبهة الداخلية ولم يحدث شغب فى غيبة السلطان وضبط أحوال البلاد جيداً وكان محبياً للبرعية، وكان يثير الحماس والتفاؤل، وكان

يسير فى مواكب رسمية بالطبل والموسيقى، وأصبح طومان باى بالفعل مشرقاً على معظم وظائف الدولة ولم يبق أمامه إلا منصب السلطنة.

وأصبحت مصر خالية من السلطان منذ سفر الغورى إلا أن السلطة كانت فى يد طومان باى ونتيجة لقتل قانصوه الغورى فى حربه مع العثمانيين، وكان الغورى أوصى جميع أمرائه أنه إذا أصابه شىء أن يسلطوا عليهم طومان باى فقالوا لـطومان باى: «ما عندنا سلطان إلا أنت».

وامتنع طومان باى عن قبول السلطنة خوفاً من غدر المماليك، وتعودهم على العصيان إذ إن خيانتهم للسلطين كانت من سمة الحكم المماليكى فى مصر، وكان المتنافسون يدخل بعضهم على بعض وهم يلبسون الدروع تحت الثياب خوفاً من الغدر وكان المنتصر يفعل ما يشاء بالمهزوم، ولا شك أن نهاية الغورى الحزينة كانت أساسها الخيانة من جانب الأمراء فى أثناء المعركة الحاسمة مع العثمانيين.

وقد أصبح طابع الغدر سمة المماليك؛ لأن مبدأ الوراثة كان غير مقبول وقد بذلت محاولات لتسوارث السلطنة فى عهد بيبرس وقلاوون إلا أن الوراثة لم تمتد إلى أكثر من ابن السلطان ولكن السلطان الناصر محمد الذى تولى من بعده ثمانية من أولاده وأربعة من أحفاده، وامتنع طومان باى عن قبول السلطنة مدة خمسين يوماً إلا أنه قبلها بعد ذلك تحت ضغط رجال الدين فى مصر وكان رجال الدين فى مصر هم السبب فى اختيار طومان باى للسلطنة، ويرجع ذلك إلى ما كان يتحلى به طومان باى من صفات لأنه كان غير متكبر أو متعجب وكان حسن السياسة وكان زائد الأدب والسكون والخشوع والخضوع، ملازماً لزيارة المشايخ ولم يظهر عنه شىء من الأفعال الردية فلم يشرب الخمر وكان يقتصر على روج واحدة «خوند» وهى ابنة أمير مملوكى مثله.

وطومان باى شديد الحب والولع بالآداب والعلوم والشعر ومغرم بالتاريخ والسير ويحب اللغة العربية.

ومبايعة طومان باى بالسلطنة كانت فى يوم ١٤ من رمضان سنة (٩٢٢هـ / ١١ أكتوبر ١٥١٦م) وتمت بشكل مختصر بسبب ظروف الحرب ضد العثمانيين وركب طومان باى من بيته إلى مكان الاحتفال بالقلعة، وقد لبس على رأسه عمامة مدورة سوداء وعلى جسده رداء بسيطاً أبيض، وعقدت بيعته فى مكان اسمه «ايوان» يقع عند باب السلسلة.

وقد أحضر لطومان باى خلعة السلطنة وهى عمامة سوداء تعرف بالتحفيفة الكبرى أو ما كان يسمى أيضاً «الناعورة» وتكون مكان التاج للملك مصر أما على الجسد فلبس حلة الملك أو الكاملية وهى رداء عربى من حرير أسود وأحضر له السيف المذهب وتقدم الأمراء والعسكر الموجودون فى الأيوان لتقبيل الأرض بين يديه ثم قبلوا يده.

وأمر طومان باى بمنح والخلع على نواب القضاة والأمراء وكبار الموظفين وتميز الخلع بوجود اسم السلطان منقوشاً عليها حيث اشتهرت مصر بصنعها.

وبعد ذلك خرج السلطان وحوله الأمراء ورجال الدولة وقدامهم أبو الخليفة فى موكب بشعار السلطنة من بنود وأبواق وطبول.

وحينما حان وقت صلاة الجمعة خرج موكب السلطان من جديد فزينت له القاهرة وارتفعت أصوات أهلها بالدعاء.

وأقيمت لزوجته «الخوند» مراسم خاصة فى هذه المناسبة فطلعت إلى القلعة بالفوانيس والمشاعل ومعها نساء السلاطين «الخوندات» لا سيما نساء الغورى ونساء الأمراء.

بتولية طومان باى السلطنة تلقب بالقابها، وأصبح الخطباء يخطبون باسمه من منابر المساجد وضربت باسمه السكة وهى العملة، مثلما كان يحدث لمن يتولى السلطنة ويقوم مثل السلاطين بالرسوم الملكية وقد كان طومان باى يقوم بالفعل

برسوم السلطنة فى أثناء غيبة الغورى لا سيما فى الاحتفال بكسر الخليج أو كسر السد - ويخرج موكب رسمى متجهًا لمقياس النيل الموجود بالروضة وحينما يصل إلى المقياس يعمد إلى تعطيره بالطيب، اعترافاً بوفاء النيل، فعطر من إناء خاص عامود المقياس المثلث وهو من الرخام الأبيض ثم توضع بعد وصلى ركعتين ثم أقيم سماط فى قاعة المقياس وورعت الحلوى .

وتوجه إلى كسر أو فتح السد الواقع على الخليج فى غربى القاهرة وكان فتحه إيذاناً بفتح جميع السدود فى القطر كله لإرواء أرض مصر المزروعة .

إلا أن الأمور تغيرت بعد توليه السلطنة بسبب الهزيمة وظروف الحرب مع العثمانيين بحيث أن اختصرت الرسوم السلطانية، ولم يقيم معظمها، كما اختصر موكب العيد ولم يقيم فيه بالرسوم الخاصة وحتى الاحتفال بإرسال الكسوة إلى الكعبة لم يقيم مع أن مصر تعودت عليه يرجع ذلك إلى الحرب مع العثمانيين .

ويعتبر طومان باى السابع والأربعين من سلاطين المماليك فى مصر والأخير فى دولة المماليك .

* * *

أحوال مصر

قبل أن يتولى طومان باى السلطنة كانت البلاد فى أقصى درجات التدهور وكانت الدولة المملوكية فى آخر حياتها، ولم يكن طومان باى نفسه هو المسئول عن تدهور الدولة وكان الفساد قد استشرى فى كيان الدولة وكانت نهاية حتمية لها، وكانت طبيعة الحكم المملوكى أنه لا يرمى إلا مصلحته فى المقام الأول، مما جعل الناس يقفون فيه موقفًا سلبياً حينما دخل العثمانيون مصر وكانت دولة المماليك يحكمها أرباب السيوف الذين استحوذوا على السلطة.

وترتب على ذلك أن الطبقة الحاكمة احتفظت لنفسها بالوظائف الكبرى وتمكنت من خلالها من السيطرة التامة على البلاد سياسياً وعسكرياً، وكان السلطان يتولى الحكم ويشغل هذه الوظائف الثابتة الممدودة بأعوانه ويقوم بعزل من كانوا يشغلونها.

وما إن تولى طومان باى السلطنة حتى عين فى وظائف الدولة الكبيرة والصغيرة بعض الأمراء من أعوانه.

ولكنه أبقى على بعض الأمراء الأقوياء من أعوان السلطان الغورى على الرغم من إحساسه وشكه فى إخلاصهم له ولحكمه.

ومع أن طومان باى قد تولى السلطنة بناء على تأييد المصريين وأنهم هم الذين سعوا إلى توليته فإنه مثل سابقه من سلاطين المماليك لم يحاول إشراكهم فى المسئولية السياسية معه فى الحكم ولم يعمل على إعادة منصب الوزير الذى كان يختار عادة من بين المصريين، حقاً إنه فى ظل المماليك البحرية وحتى البرجية كان يوجد منصب الوزير أحياناً إلا أن الوزارة على عهدهما أصبحت غير مستقرة بسبب

استبداد السلاطين مما أوجد بالتالى حالة من التراخى فى شئون مصر الإدارية، وكان الوزراء يتغيرون بسرعة مذهلة ولعل هذه الحالة التى وصلت إليها الوزارة جعلت طومان باى مثل سابقه من السلاطين يشرف على كل شىء فى الدولة.

ومع ذلك فإن الشيخ أبا السعود، وهو من رجال الدين المصريين والذى كان السبب فى تولية طومان باى، أراد أن يشاركه فى مسئولية الحكم ويتصرف معه فى أمور الدولة من عزل وولاية، ويبدو أن طومان باى قد استجاب له بالفعل فسمح له بأن يفعل ما يشاء بموظفى الدولة الذين أصبحوا رهن إشارته حتى أنه أمر بشنق أحدهم مما جعل السلطان يحد من نفوذه نهائياً، ويسيطر على الحكم بمفرده مثل سابقه من السلاطين.

وقد اهتم طومان باى بتثبيت نظام قضائى سليم فى مصر يتبع السلطة العليا مباشرة، هو نظر المظالم الذى يعنى بحقوق الناس من تعدى الدولة وموظفيها فضلاً عن وضع حد للفساد فيها، وكان طومان باى يقوم بنظر المظالم قبل توليه السلطنة لذلك عندما أصبح سلطاناً سعى إلى إبطال كثير من المظالم . بحيث أصبحت دولته تسمى الدولة العادلة.

وجعل لنظر المظالم مكاناً خاصاً بالقلعة مركز الحكم المملوكى، وكانت أغلب المظالم تأتى عن طبقة الفلاحين نتيجة زيادة الضرائب التى أثقلت كاهلهم فضلاً عن سوء المعاملة.

وكان الممالك، منذ قيام دولتهم فى مصر، يستحوذون على جميع أراضيها المزروعة بحيث أصبحت أشبه بملكية خاصة على حسب درجاتهم من السلطان إلى أصغر مملوك.

ونتيجة لذلك أصبح فلاحو مصر عبيدا للأرض، لذلك فإن طومان باى رفع كثيراً من الظلم عن الفلاحين وأخرج من كان فيهم فى السجن نتيجة لاستبداد الممالك.

وجدت مظالم كثيرة بسبب جشع الممالك واستغلالهم على حقوق الناس،

فالماليك بمختلف طبقاتهم تميزوا بالميل إلى اغتصاب الأموال وتكديس الثروات من أى باب حلال أو حرام . والتهاافت على جمع الأموال ، وكان طومان باى يرفض أن يأخذ أموال الناس قهراً حتى لا تحدث فى أيامه مظلمة أبداً على حد قوله .

وإذ انشغل المماليك بالحرب وخرجوا فى الحملات فلإن عبيدهم وغلماهم ينهبون فى المدن على أساس أن البلاد خالية من أى رقابة لذلك فلإن طومان باى حتى وهو أمير غبية كان يمنع المماليك الجلبان وهم الذين يدرسون فى الطباق وهى المدارس الحربية الخروج منها ، إذ كانوا ينزلون من طباقهم لارتكاب الجرائم .

وترتب على هذه الفوضى ، أن لحق الخراب بمعظم مدن مصر الكبرى مثل الإسكندرية ودمياط وغيرهما من المدن .

وكان المماليك أنفسهم يميلون إلى أذى الناس حتى أنه كان نادراً ما يقال عن أحدهم إنه قليل الأذى وإن كان قليل الأذى يقال أنه لا بأس به ، حتى أن الغورى وصف بالظلم وأنه حكم خمس عشرة سنة كان كل يوم فيها بألف سنة مما يدل على ثقل حكمه على الناس ، وعلى العكس فقد وصف ابن إياس طومان باى بأنه كان لين الجانب قليل الأذى غير متكبر ولا متجبر .

وقد اهتم طومان باى بنظام دينى كان من ركائز الدولة الإسلامية فى العصور الوسطى وهو : «الحسبة» التى هى خدمة لمصالح سكان المدن على الخصوص ، من الناحية الاقتصادية أو حتى من الناحية الأخلاقية ، على أساس الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فكان طومان باى يعالج معاش الناس فى القاهرة بالتسعية الجبرية فقد عاقب سمساراً للغلال لأنه رفع سعره ، ولعل اهتمامه بالناحية الأخلاقية والخلاصة أن طومان باى سواء فى غيبة السلطان الغورى أو فى وقت سلطنته كان رءوفاً بالرعية .

ومن أسباب تدهور الأحوال فى عهد المماليك فى مصر أن العرب والعربان تنافسوا مع المماليك فى السيطرة على مصر واستغلالها ونهبها ، وكان هؤلاء العرب قد سكنوا مصر منذ الفتوح الإسلامية .

وكان العرب قد اعتبروا المماليك غرباء عن البلاد واعتبر العرب أنفسهم أحق منهم بها وحينما تسلطن أيك وهو أول سلطان مملوكى فى مصر لم يرضوا أن يحكم المماليك وثاروا فى البلاد وقطعوا الطريق وانضم إليهم العربان فى كل مكان حتى بلغ عددهم مائة ألف فخرج إليهم السلطان أيك بمماليكه وقاتلهم، ولكن رعيم العربان حصن الدين ثعلبة استطاع الفرار وكان العربان قد وجدوا أنه لا فائدة من مقاومة المماليك فسعوا إلى الاتفاق معهم مع اقتسام البلاد حيث أسرع أيك بوعدهم بالاقطاعات والأمان ولكن أيك حينما جاء رعاياهم للاتفاق معه قتلهم وشنقهم وأمر بمماليكه بمعاملة العرب بقسوة وضاعف عليهم الضرائب .

ومع ذلك استمر العربان فى إثارة القلاقل وحرق الأخضر واليابس حتى أن السلطان الناصر بن قلاوون ذهب بنفسه إلى الصعيد ليعيد إليه حالة الاستقرار .

وكان السلطان الغورى قد بالغ فى تأديب العربان وقتل عددًا كبيرًا حتى أصبح لا يوجد عربى منهم إلا وقتل له واحد من أقربائه كما سجن عددًا كبيرًا .

كما أرسل الغورى طومان باى ضدهم الذى فاجأهم وقبض على العديد من مشايخهم وكاد السلطان يشنقهم ولكنه تحت تحريض طومان باى اكتفى بسجنهم .

والواقع أن دور العربان فى مصر كان سببًا فى تدهور أحوالها بسبب فتنتهم التى لم تنقطع بحيث أنهم كانوا عاملاً أساسيًا فى زوال دولة المماليك حينما أتيحت لهم الظروف بوصول العثمانيين إلى مصر فهؤلاء العربان كانوا السبب فى خراب مصر وضياع دولة المماليك، ويضاف إلى ذلك أن الحالة الاقتصادية قد بلغت هى الأخرى حالة غاية فى السوء، نتيجة لعوامل متعددة وذلك لسوء حظ طومان باى .

وكان المؤكد أن انحسار التجارة العالمية وما كانت تدره من مال وفير لدولتهم السبب الرئيسى فى سوء الحالة الاقتصادية، فقد كانت مصر تقوم بنقل التجارة العالمية بين الشرق والغرب .

فقد كانت مصر تنقل إلى أوروبا توابل الهند والصين، وقد ترتب على ذلك انتعاش التجارة إلى أوروبا عن طريق مصر.

وفى أول الأمر فرض المماليك الضرائب الباهظة على هذه التجارة وإن كانوا ما لبثوا أن قاموا باحتكارها لأنفسهم عن طريق التجار أو عن طريق مشرفين متخصصين يقيمون فى موانئ مصر الكبرى مثل الإسكندرية العظمى ودمياط وعيذاب. ولما احتكر المماليك هذه التجارة أصبح لهم أيضاً أسطول كبير يقوم بنقل التجارة.

وليس أدل على انتعاش الحياة الاقتصادية فى أيام المماليك من وجود كلمات كثيرة تدل على ذلك مثل دكاكين وحوانيت ووكالات وفنادق وكانت الفنادق توجد فى كل أنحاء المدن المصرية من الإسكندرية إلى أسوان.

ولكن هذا الازدهار الاقتصادى فى عصر المماليك حدث له نكسة قضت عليه تدريجياً منذ الغزو المغولى الذى فتح طريق آسيا إلى أوروبا مباشرة، وبخاصة أنه ربط بين الصين والهند بالمسالك البرية إلى البحر الأسود.

إلا أن الضربة القاضية للازدهار الاقتصادى أتت على الخصوص حينما قامت دول أوروبا باستكشافات بحرية كان قصدها البحث عن طريق بحرى إلى الهند والصين غير طريق البحر الأحمر الذى يقع فى أملاك الدولة المملوكية.

وكذلك عاشت مصر أسوأ أحوالها المعيشية نتيجة للمجاعات المتعددة، فقد أنهكت المجاعات مصر طوال العصر المملوكى، وكان أغلبها يحدث بسبب توقف النيل عن الفيضان فيتوقف الزراع عن الزراعة وترتفع أسعار المواد الغذائية والقوت الضرورى وكان يصاحب هذه المجاعات تفشى الأوبئة وبخاصة الطاعون وكان أشهرها الطاعون الأسود.

وكذلك وقع الزلازل فكانت البيوت ومآذن المساجد تتساقط . هذه الأحوال السيئة فى مصر جعلت البلاد والدولة المملوكية فى أشد حالات الإعياء والانهيار فكان ذلك من سوء حظ طومان باى الذى تولى السلطنة عقب تراكم جميع هذه العوامل السيئة .

* * *

التوسع العثماني

كان من الممكن أن يبقى حكم طومان باى على مصر مثل حكم بقية السلاطين قبله مع وجود كل هذه الظروف السيئة التى أحاطت بالبلاد فى أخريات دولة المماليك لولا أن ظهور العثمانيين كقوة إسلامية فتية منافسة لدولته أصبح السبب المباشر فى القضاء عليها ضياع طومان باى نفسه .

والواقع أن أصل العثمانيين من الترك وكانوا يعيشون فى سهوب آسيا الكبرى إلا أن العثمانيين قد ميزوا أنفسهم عن بقية الترك باعتبار أن هذه اللفظة تعنى لهم بالأولى البدو من الترك .

وعلى أية حال فإن العرب عرفوا الترك وقت ضعفهم على عكس ما كانوا عليه فى الزمن القديم حيث امتدت دولتهم من تركستان فى وسط آسيا التى سميت بهم إلى سور الصين ومع ذلك فإن لفظة الأتراك كانت تعنى بالنسبة لهم الأقوياء فحاربوهم بقسوة منذ الأمويين واستولوا على بعض بلادهم فى وسط آسيا ونواحيها ولكن الترك أقبلوا على الإسلام الذى شاع بينهم فى زمن العباسيين وسعوا إلى ترك بلادهم ليهاجروا إلى بلاد الإسلام وليعملوا فى قصور حكام المسلمين حتى أصبحوا عماد جيش الخلافة العباسية منذ عهد المعتصم العباسي .

وقد انتقل العثمانيون، وهم نوع من الترك، مع السلاجق إلى آسيا الصغرى واشتهروا بالعثمانية أو العثمانيين نسبة إلى عثمان بن أرطغرل وإن عرفوا أيضاً فى أول إقامتهم فى آسيا الصغرى باسم ترك بإيمان وذلك بسبب صدق إسلامهم . ويبدو أن سلاجقة الروم هم الذين سمحوا لعثمان هذا فى تكوين إمارة قره حصار فى جنوب بحر مرمرة بسبب مساعدته لهم ضد الروم، وقد أخذ يوطد أقدامه على

حساب جيرانه من الترك السلاجقة الذين تجزأت دولتهم إلى إمارات صغيرة بسبب منافسات أمرائهم، فكانوا يضمونها واحدة بعد أخرى إلى ملكهم كما أن عثمان بالذات سك عملة باسمه .

وفى عهد أورخان عثمان استولى العثمانيون أيضاً على بلاد مهمة من الروم وساعد على ذلك أن العثمانيين قد اخترعوا تنظيمًا اعتمدوا عليه فى الجهاد ضد الروم عرف بالإنكشارية وتعنى الجند الجدد .

وأكثر من ذلك أن الترك العثمانيين استولوا أيضاً على بلاد عديدة فى أوروبا على يد مراد الأول، ومن بعد بايزيد الأول وعبروا الدانوب ودقوا أبواب فيينا .

ولما انتبعت أوروبا إلى خطر العثمانيين عليها أتى الألمان والإنجليز والفرنسيون ليقوموا بحرب صليبية ضدهم فهزمهم بايزيد الأول هزيمة منكرة فى موقعة نيقوبوليس أى مدينة النصر على ضفاف نهر الدانوب وأسر عدداً كبيراً من أشرف فرنسا، وكان لقبه «يلدرم» أى البرق أو الصاعقة ولكن مع وصول جنس المغول توقف نمو العثمانيين وقتاً، وكان قائد المغول تيمورلنك الذى حارب بايزيد الأول وهزمه فى معركة جو بوق أووه قرب أنقره سنة ١٤٠٢م وأسر بايزيد الأول الذى ما لبث أن انتحر فى السجن وقد ترتب على هذه الهزيمة تمزق دولة العثمانيين وتنازع أولاد بايزيد الأول وتحاربوا فيما بينهم وانفصلت كثير من البلاد عن دولتهم .

ولكن مع موت تيمورلنك استطاع محمد الأول وهو أول من استطاع أن يعيد الدولة العثمانية موحدة وقوية كما أنه على يد مراد الثانى ومن بعده محمد الثانى أصبحت دولتهم من أعظم دول الأرض ولا سيما فى عهد هذا الأخير الذى انتصر على دولة الروم فى آسيا الصغرى وحاصر عاصمة الروم القسطنطينية من البر والبحر وتمكن من الاستيلاء عليها .

اشتهر محمد الثانى نفسه بالفاتح وأصبح لفتح القسطنطينية أهمية خاصة فى تاريخ المسلمين إذ ترتب عليه قطع دابر دولة الروم .

ومن ناحية أخرى كان لاستيلاء العثمانيين على القسطنطينية أثره الكبير فى أوروبا إذ بعدها انطلق العثمانيون أيضاً بالفتح فيها وكأنهم أصبحوا يقومون بحركة اسلامية مضادة للحركة الصليبية ، بغزو الأوروبيين فى عقر دارهم وإن كانوا قد قاموا بذلك منذ قيام دولتهم .

المماليك لم ينظروا إلى العثمانيين فى أول الأمر بمنظار العدواة، أو المنافسين لهم فى السيطرة والنفوذ فى العالم الإسلامى، على أساس أنهم لم يعادوهم بعد؛ ولأنهم فى نظرهم لا يرقون إلى مرتبتهم: وحتى وإن كانوا قد أحرزوا انتصارات هائلة فى آسيا الصغرى وأوروبا ؛ إلا أنهم لا يقيمون مثلهم فى قلب العالم الإسلامى العربى، وإنما فى آسيا الصغرى وأوروبا فاتخذوا القسطنطينية، عاصمة الروم السابقة عاصمة لهم - وإن سموها اسطنبول - بكل ما كانت تمثله من عدااء شديد للإسلام طوال قرون عديدة .

وعلى العكس؛ فإن المماليك بسبب وجود دولتهم فى الشرق : اعتبروا أنفسهم حماة الإسلام والعروبة معاً؛ وعلى الخصوص: بسبب اتخاذهم مصر قلب العربوة والإسلام، ومركز الثقل فيهما؛ قاعدة أصيلة لدولتهم الإسلامية العربية المترامية، لا سيما وأن سياستهم هى نفسها سياسة الفاطميين والأيوبيين من قبل، باتخاذ مصر قاعدة للنضال فى سبيل العربوة والإسلام. ثم إن المماليك كان رصيدهم السابق بالنسبة للإسلام والعروبة كبيراً جداً؛ فهم الذين قطعوا دابر الصليبيين من الشرق، وأنهم الذين أوقفوا الخطر المغولى. الذى لم يكن يقل تهديداً للبلاد العربية والإسلامية عن الخطر الصليبي، كما استطاعوا أن يعيدوا الخلافة التى قضى عليها المغول فى بغداد، وبذلك أعادوا للإسلام ركناً مهماً فى شرعية وجوده؛ بحيث أصبحت القاهرة مركز خلافة العباسيين .

وبعد أن قاموا بهذه المهام الكبرى: لصالح الإسلام العام؛ فإنهم لم يستكينوا فى الجهاد ضد القوى الصليبية؛ فها هو برسباى يذكرى روح الجهاد ويهاجم قبرص فى ثلاث حملات حتى أخضعها له، وانتصر على ملكها، وفى أخريات أيام دولة المماليك، كانوا يقومون بالجهاد ضد البرتغاليين، الذين طمعوا فى بلاد أفريقيا ونواحي الخليج العربى: بحيث أصبحت أساطيلهم تجوب هذه النواحي حتى الهند.

وفى أول الأمر؛ فإن المماليك مثل بقية المسلمين كان يثلج قلوبهم انتصارات العثمانيين على الروم، وقضاؤهم نهائياً عليهم، وفتحهم فى بلاد الروم فى أوروبا، بل يرون أنهم أفضل من سلاجقة الروم، الذين عاصروا نشأة دولتهم؛ ولأن هؤلاء جاهدوا الروم والصليبيين؛ إلا أنه بسبب ضعفهم بعد ذلك؛ نتيجة لانقسامهم؛ فإنهم أصبحوا ضعافاً متداعين: فكان مظهر التقدير للعثمانيين المجاهدين؛ هو أن الخليفة الذى يستظل بحماية المماليك فى مصر، كان يرسل إلى سلاطين آل عثمان تقليد السلطنة على الخصوص، من دون هؤلاء السلاجقة.

ومن ناحية العثمانيين، كانوا أيضاً فى وثام مع المماليك فى أول الأمر، يظهر ذلك من الرسائل التى تبادلوها مع سلاطين المماليك؛ فيها تفخيم لهم باعتبارهم قادة العرب، وحماة الحرمين الشريفين، أو أن السلطان المملوكى هو خادم المساجد الثلاثة، أى المسجد الأقصى مضافاً للحرمين الشريفين، وأحياناً تبادل عبارات الحب والوله. وإن كان ذلك من قبل سلاطين مصر أيضاً، لا سيما حين كان أى جانب منهما ينتصر على قوى المسيحية. فيتردد فى رسائلهم: أن المملكتين روحان فى جسد، وساعدان فى عضد أو أنهما مملكة واحدة. فهذا التعبير قد أصبح يتردد غالباً فى مراسلات الدول الإسلامية الصديقة فى ذلك الوقت. ففى عهد مراد العثمانى، أرسلت منه تهنئة إلى برسباى المملوكى، يهنئه بالفتح القبرصى.

وكثيراً ما كان سلاطين العثمانيين يستشيرون سلاطين مصر فى حملاتهم الأوروبية، وينزلونهم منزلة الآباء لهم؛ وإن انتصروا فى معارك ضد الروم أو الفرنجة أرسلوا إليهم بعض الأسرى منهم، كما أن بعضهم قد يطلب أطباء مصريين لمعالجتهم، أو حتى بعض منتجات مصرية، مما يتبين منه العلاقة الودية مع ممالك مصر.

ولكن العثمانيين بسبب انتصارهم فى آسيا وأوروبا : فإنهم أصبحوا يرون أنهم يستحقون مركزاً خاصاً بين مسلمى الشرق؛ حتى ولو كانوا بعيدين عنه، بحيث أصبح ذلك هدفاً فى سياستهم: منذ أخذهم القسطنطينية : فإنهم طمحوا إلى السيطرة على بلاد المشرق الإسلامى أيضاً: بحيث أن محمداً الثانى - أو الفاتح - الذى استولى على القسطنطينية، كان قد أعد جيشاً لغزو بلاد المسلمين، ولكنه توفى قبل أن ينفذ غرضه؛ ومن الغريب أن النزاع الأسرى للعثمانيين، كان هو السبب المباشر فى تفجير العداء مع المماليك ، سيما وأن محمداً الفاتح هذا وبعد وفاة محمد الثانى حدث نزاع على السلطنة بين بايزيد خان الثانى، وأخيه الأصغر «جم» الذى أراد أن تقسم المملكة بينهما، فلما هزم لجأ إلى مصر ومعه أمه وزوجته وقد أخطأ قايتباى فى تشجيع العنصر الضعيف وهو جم ضد بايزيد الذى نجح فى تولى السلطنة ، لم يكن قايتباى فى وئام تام مع أمراء المماليك؛ مما جعله يقيم السلام مع العثمانيين بأى ثمن؛ فأعاد محاولاته لوقف العداء بينه وبين العثمانيين؛ حقناً لدماء المسلمين. وقد استعان فى سبيل ذلك بوساطة باى تونس، المسمى عثمان، الذى أرسل رين الدين، أحد فقهاء المشهورين للوساطة بين بايزيد وقايتباى؛ ومع لباقة الفقيه التونسى؛ فلإن الوساطة لم تنجح؛ مما جعل قايتباى يتنازل للعثمانيين عن أدنة وطرسوس؛ فكان هذا هو أول وهن للمماليك أمام العثمانيين؛ كما أن قايتباى فى نفس الوقت؛ بدأ فى تحصين البلاد؛ حيث أنشأ قلعته المعروفة باسمه فى الإسكندرية، خوفاً من غزو مفاجئ.

فلما تولى الغورى بعد قايتباى، سعى إلى أن يصلح الأمور مع بايزيد الثانى، فأعلن له فى رسالة لدينا نصها: أن سلفه قايتباى «انعوج عن المصادقة»؛ إلا أنه على عكسه يسعى إليها، ويعترف بمواقف بايزيد الثانى فى الجهاد ضد الأوربيين، ويصفه بالسلطان الغازى. وتبدو حيلة الغورى، فى أنه قد رفض أن يعجى ابن بايزيد الثانى، واسمه قورقود إلى مصر فى طريقه للحج، إلا إذا أذن له أبوه بذلك؛ فأرسل قورقود الذى كان قد وصل إلى مصر برسالة أو التماس إلى أبيه، يستأذنه فى ذلك، مع أحد علماء الأزهر الشريف. بحيث أن بايزيد الثانى أرسل للغورى يشكره على ذلك، يلقبه فيها بالأخ. مما يدل على أن العلاقات الودية قد عادت بين المماليك والعثمانيين بعد التوتر السابق.

وبعد موت بايزيد الثانى، تجدد النزاع بين العثمانيين والمماليك؛ وحدثت حوادث متشابهة؛ بالتجاء أحد أمراء آل عثمان إلى مصر؛ بسبب النزاع على الحكم. فقد كان بايزيد الثانى هذا، قبل موته، قد فرّق مملكته بين أولاده؛ مما أغضب ابنه سليماً، الذى تميز من بين أخوته بشدة البأس، ولم يكن فى قلبه أى رحمة، بشكل غير عادى، ولم يكن يهتم غير شخصه فتأمر سليم ضد والده، معتمداً على الإنكشارية على الخصوص، وأجبره على التنازل له عن السلطنة، ودخل القسطنطينية؛ مما جعل والده يتركها إلى الكوفة بالعراق، التى توفى فيها عام (٩١٨ هـ / ١٥١٢ م)، ثم حارب أخاه الأكبر أحمد، الذى لحق بأبيه خوفاً منه، ولم يسمع بأحمد هذا بعد ذلك، كما يبدو أن سليماً قد قتل بيده معظم أخوته، بما فيهم قورقود، وربما كان قد قتل أباه أيضاً، حتى عُرف باسم: «ياووز Yavuz»، أى الصارم، أو الجبار البطاش.

ومع ذلك: فقد تمكن أبناء أحمد من الهروب إلى مصر، وهم على التوالى: سليمان وعلاء الدين وقاسم: وإن كان الغورى قد استقبلهم فى مصر على مضض، وقد مات الأولان بالطاعون. فأرسل سليم يطلب من الغورى تسليم قاسم، وكان صغير السن، لا يتعدى ثلاث عشرة سنة، فرفض الغورى طلبه؛

بسبب أن الغورى كان يرى أن سليماً الذى اجتراً على كل هذه الجرائم ، لا يتورع عن قتاله، سيما وأن الأمور كانت قد تأزمت بين الدولتين: بسبب مدن الحدود. فلما وجد سليم أن الغورى يتدخل فى شئون أسرته، عزم على حرب الممالك حرباً شاملة.

وعلى كل حال أدرك الغورى أن قصد سليم من تحركه إلى الشرق لم يكن محاربة الصفويين بقدر محاربته هو ، بدليل أن سليماً لم يسر فى هزيمة الصفوى للنهائية، وربما أيضاً بسبب أن بلاد الصفوى واسعة وجبلية، أو حتى خوفه من أن يهاجمه الممالك فى مصر. وكان سليم فى وقت محاربته للصفوى يتحرش بالغورى؛ بحجة أنه يأخذ جانب الشيعة ضده؛ واعتبر ذلك تحدياً له. وفى الوقت الذى أرسل فيه إلى الغورى رسالة يصفه فيها بالوالد. وذلك على حسب التقليد الذى جرى عليه سلاطين العثمانيين فى مكاتباتهم لسلاطين مصر، ويطلب فيه سكرًا وحلوى؛ حيث أسرع الغورى بإرسال مائة قنطار منها فى علب كبار؛ فإنه أخذ يهاجم الإمارات التركمانية الخلفية للغورى فى الأناضول ، التى كانت تقع بين العثمانيين والصفويين والممالك؛ حيث تعتبر لهؤلاء منافذ للتجارة القادمة من الشرق، ونصح سليم الغورى ومماليكه أن لا يلتفتوا لتضرعاتهم، ولا يتقيدوا بسفستهم. وبعد انتصار سليم على الصفويين قضى على إمارة ذو القادر - القدرية - حليفة الغورى ، كما استولى جنده على بعض مدن الحدود المصرية، مثل مرعش التى كان نائب الغورى عليها، وهو علاء الدين، بحيث أصبحت حدود سليم ملاصقة لحدود مصر.

ويبدو أن إرادة قتال العثمانيين الممالك أصبحت أمراً مسلماً لديهم به؛ بسبب أن الممالك كانوا يسيطرون على الحرمين، وأن العقلية الإسلامية وقتئذ لا تقبل أن يكون صاحب سيادة وشرعية على المسلمين؛ إلا من كان يسيطر على الحرمين . ولما كان العثمانيون يريدون أن تكون لهم رعاية المسلمين من دون الممالك؛ فإنه لن تنهيا لهم هذه الرعاية إلا بالاستيلاء على أملاك الممالك فى الحرمين. ومن قبل ؛

فإن سليماً قد أرسل إلى شريف مكة - بركات - هدايا منها مفتاح للكعبة؛ وذلك دون استئذان من الغورى، الذى غضب على أمير مكة.

ومع ذلك ؛ فلم يستعد الغورى الاستعداد الكافى لمواجهة أطماع سليم؛ ربما لأنه كان لا ينتظر أن ينهزم الصفوى سريعاً هكذا، ويستبعد أن يجرؤ سليم على القيام بحرب شاملة معه، ولعله كان يأمل دائماً المصالحة، وحتى الوساطة بين سليم والصفوى؛ بدليل أنه لما قرر السير إلى الشام، اصطحب معه أهل العلم جميعاً فى مصر، وعلى رأسهم الخليفة وقضاة القضاة والمتصوفة، ولم يستمع الغورى لنصيحة نائبه فى الشام، واسمه سيباى، الذى كان يتمتع باحترام وتقدير أهل الشام؛ بأن لا يأتى لمحاربة سليم بنفسه، وإنما يمدّه بالعسكر، واستحلفه ألا يحارب فى هذا العام، لوجود قحط فى البلاد. وعلى العكس؛ فلإن الغورى، كان يتخوف من سيباى هذا، ويظن أنه يسعى إلى أن يحل محله، ومما يؤكد أن الغورى قد أخذ حرب سليم بخفة، من أن خروجه إلى الشام سمى تجريدة. وليس حملة، وأنه خرج فى موكب؛ تتقدمه الأفيال مزينة بأنواع الزينة. والمباخر تفوح منها رائحة البخور، وحتى صحبته المغانى، كما أخذ معه آلات السلاح الفاخر المستعملة فى المواكب الرسمية، من ذخائر الملوك السابقين، مثل : السيوف والسروج المذهبة والمزينة بالجواهر، حُملت على خمسين جملاً، وكان هو نفسه يحب البذخ، ويضع فى أصابعه الخواتم والياقوت والفيروز والزمرد، ومرتقاً فى ملابسه، ولا يشرب إلا فى طاسات من ذهب. وفى أثناء سفره إلى الشام، كان يحتفل بوصوله إلى كل بلد؛ حيث كان أهله يظهرون الحماس نحوه، وذكرت فى هذه المناسبة أشعار، تتضمن أن البلاد الشامية قد شرفت بتشريفه؛ فزينت له دمشق سبعة أيام رينة حافلة، وأقيمت فيها المواكب، ونثر على فرسه الذهب، وفرش تحت حافره، بساط الحرير، كما أقام - له أمير حماة، احتفالات أعظم من احتفالات دمشق، ولقد أسرع الغورى فور وصوله إلى حلب بإرسال أحد أمرائه

إلى سليم، ومعه نص للصلح، كما أن خطبة إمام جامع حلب كانت كلها عن الصلح، وحتى الأمراء المماليك كانوا ينتظرون الجواب بالصلح، ويحنون للعودة إلى الوطن. إلا أن سليماً رفض الصلح، وقبض على رسول الغورى، ووضعه فى الحديد، وحلق لحيته، وربما أرسل إليه الغورى رسلاً آخرين؛ فقطع سليم رؤوسهم؛ مما جعل الغورى يدفع بطوالع جنده إلى مرج دابق، من مدن الحدود، قرب حلب؛ وقال: إنها إرادة الله. وخوفاً من غدر أمرائه؛ فإنه جمعهم وجعلهم يحلفون على المصحف الشريف أن لا يخونوا ولا يغدروا؛ فحلفوا كلهم على ذلك، أما غير الأمراء من الجند، فإنهم مروا تحت سيفين على هيئة قنطرة، عنوان القسم على الولاء.

وقد قسم الغورى عسكره بإزاء عسكر سليم، فوضع فى المقدمة سيىاى نائب الشام، وميمنة على رأسها جان بردى الغزالى نائب حماه، وميسرة على رأسها خاير بك أمير حلب، أما هو فقد أقام لنفسه فى الوسط سرادقاً كبيراً، وقد أحاط به الخليفة وقضاة القضاة وأعلام رجال الصوفية، وقاسم بك ابن أخ سليم.

وقد دارت المعركة فى يوم الأحد ١٥ من رجب سنة ٩٢٢ / ٢٤ أغسطس ١٥١٦، فى يوم شديد الحرارة؛ وإن أحاطت بها الخيانة منذ بدايتها. فقد سرت إشاعة مغرضة بأن الغورى يريد أن يتخلص من القرائصة، وهم من مماليك السلاطين والأمراء السابقين، وأنه طلب من الجلبان وهم مماليكه ألا يقاتلوا؛ مما جعل القرائصة الذين كانوا فى المقدمة يتوقفون عن القتال؛ مما ترتب عليه الهزيمة الكاملة، وفرار المماليك بجميع فئاتهم؛ وكان خاير بك أول من هرب من الأمراء، وتبعه جان بردى، حيث كان كلاهما يرى نفسه أنه أحق بالسلطنة من الغورى، وقد حاول الغورى أن يوقف فرار المماليك حيث أصبح فى نفر قليل، وكان ينادى بصوته: هذا وقت المروءة، هذا وقت النجدة؛ إلا أن المماليك استمروا يفرون، حينئذ طوى حامل راية السلطان - الصنجق السلطانى - رايته؛ وحدث شلل مفاجئ

للسلطان، وخرجت روحه ، بعد أن انقلب عن فرسه ؛ ، وإن يبدو أن رأسه قد قطعت، حتى لا يتعرف عليه العثمانيون ، فلم تظهر له جثة بين القتلى، وكأن الأرض ابتلعته في الحال؛ حيث كانت جثث كثيرة مرمية بلا رءوس؛ فقد قتل كثير من أمراء الشام ومصر، فوق الأربعين ، منهم سييى نائب الشام .

حينئذ استولى سليم على خيام السلطان ، واحتوى على ما فيها من أسلحة، ومال وتحف، ولا شك أن انتصار العثمانيين على المماليك، ومن قبل على الصفويين، أو حتى على الروم والفرنجية . راجع إلى تفوقهم الحربى؛ بسبب تطوير استعمالهم لسلح البارود وآلاته على الخصوص؛ وذلك فى الوقت الذى أهملته الدول الأخرى ، بما فىهم المماليك؛ مع أن هؤلاء اعتبروا أول من استعمله .

ولعل العثمانيين بالذات، من دون غيرهم؛ قد اهتموا بالبارود اهتماماً كبيراً؛ بحيث جعلوه أساس تسليح جيشهم من المشاة والفرسان، وسموه «باروت» ؛ فكان استخدام العثمانيين له بنجاح يعتبر مرحلة مهمة فى سبيل تطوير «الطاقة» ، واستخدامها لأغراض الحرب، وهو التطوير الذى لا يزال مستمراً حتى وقتنا الحاضر .

فهم أول من جعلوا المدفع سلاحاً هجومياً، وأوجدوا له (فرقة) رهيبة فى جيشهم؛ عرفت بطوب جيلار - مفردتها طوب جى - فكانوا بذلك على عكس المماليك، الذين لم يستخدموه فى الغالب إلا كسلح دفاعى فى القلاع . وقد ترتب على ذلك، أن أصبح المدفع فى أيديهم سهل الحركة، يتحرك على عجلات من خشب، تسحبها الخيل والأكاديش والجمال والأبقار والجاموس، بعضها قد تصحبه ثلاثون أو أربعون من الخيل .

فكان تطوير استعمال البارود وأسلحته على أيدي العثمانيين عاملاً حاسماً فى انتصاراتهم فى جميع حروبهم التى خاضوها ، أول ما ظهر أثره فى حصارهم للقسطنطينية، فى عهد السلطان محمد الفاتح فى عام (٨٠٧ هـ / ١٤٠٣ م) والذى حاصرها براً وبحراً .

حقًا إن الغورى؛ قد استخدم المدافع ضد البرتغال ، لما قامت المنافسة بين المماليك وبينهم على تجارة التوابل ، كما أنه وضع ما صنع منها فى القلاع لا سيما فى الإسكندرية ، التى أرسل إليها مائتى مكحلة؛ حين بلغه أن سليمًا جهز عدة مراكب للإغارة على السواحل المصرية . ومع ذلك؛ فإنه لما قرر السير إلى الشام، لم ينفق على رماة البندق، فقد قال : ما عندى نفقة لهؤلاء . وربما لم يشتركوا معه فى المعركة الحاسمة ضد العثمانيين . وعلى العكس من ذلك؛ فإن جيش سليم، حينما رحف على الشام، كانت جميع عساكره تستخدم البارود وأسلحته ؛ فكان لديه ثمانمائة مدفع، منها مائة وخمسون مدفعًا كبيرًا فلما تقابل مع الغورى فى مرج دابق - قرب حلب - هزم جيش الغورى هزيمة منكرة، وقتل معظم أمرائه ومماليكه .

* * *

طومان باى وسليم

دخل سليم فى صراع مباشر مع طومان باى ، الذى كان قد أعلنت سلطته فى مصر، بعد مقتل قانصوه الغورى، فى فترة حرجة، تعتبر من أخرج فترات مصر، ومع ذلك؛ فلا نعرف لأول وهلة حقيقة مقصد سليم، بعد انتصاره على الغورى فى مرج دابق، وهل كان ينوى إن يستمر فى فتح الشام ومصر، أو يكتفى بهذا الانتصار، ويعود بعد ذلك إلى بلاده، إن سليماً لم يكن يريد أن يستمر فى حرب المماليك ، وينوى العودة إلى بلاده، مثلما فعل تيمور لك المغولى من قبل، الذى لم يستمر فى الحرب مع المماليك، كما أنه كان من رأى سنان باشا، وزير سليم، أن يكتفى العثمانيون بأخذ الشام، وترك مصر لشأنها، ولكن إذا كان سليم قد استمر فى حرب المماليك، فذلك راجع إلى تحريض خاير بك بالذات، الذى كان نائباً للغورى فى حلب، وكانت خيانتته من أسباب هزيمته، ويفسر تردد سليم إلى خوفه من أن يضيع فى أرض العرب الكبيرة.

ولكن مثل هذه الأقوال التى ردها بعض المؤرخين؛ لا تنفى حقيقة طموح سليم نفسه فى أخذ بلاد الشام ومصر؛ يظهر ذلك بوضوح فى الرسالة التى أرسلها إلى طومان باى بعد موقعة مرج دابق ، مكتوبة بالتركية، فحواها أن الله قد أوحى إليه بأن يملكه البلاد شرقاً وغرباً، كما ملكها الإسكندر ذى القرنين من قبل، ويعتبر نفسه بسبب انتصاره على الغورى سلطاناً فى أملاكه، ويدعوه أن يكون نائباً له من غزة إلى مصر، وأن تكون له فيها الخطبة وسك العملة.

وعلى كل حال، كانت الخطوة التالية لسليم، بعد مرج دابق ، استيلاؤه على حلب، أكبر مدن الشام ؛ فيذكر المؤرخون أنه دخلها بدون مقاومة ، وأنها زينت له

وأوقدت الشموع ليلاً ؛ وذلك راجع إلى أن خاير بك ، لما انسحب من مرج دابق ، عاد إلى حلب ، وما لبث أن أظهر حقيقة غدره ؛ فخلع زى المماليك ، والتزم بزى العثمانيين ، وأصبح يكتب للأمراء والمماليك ، ويرغبهم فى الدخول تحت طاعة سليم ، ويعددهم بأن يبقى كل أمير فى وظيفته ، ويحفظ له رزقه ؛ بحيث سماه سليم سخرية «خاين بك» بدلاً من خاير بك ؛ وبذلك أشبه الوزير ابن العلقمى ، الذى خان خليفته المستعصم آخر خلفاء العباسيين فى العراق ، وملك هولاءكو - هولاجو - بغداد . كذلك قد يكون سهل لسليم أخذ حلب ، لأن أهلها كانوا غاضبين من الغورى ومماليكه ، بسبب أنهم قبل انتقالهم إلى مرج دابق ، أساءوا معاملة أهلها ؛ وحينما دخل سليم حلب ، أظهر متهمى القسوة؛ فقتل كل من التجأ إليها من المماليك ، وحتى رجال الدين ، سيما رجال الصوفية منهم ، الذين كانوا مع الغورى ، وعلى رأسهم أقطابهم ، الذين هربوا إليها براياتهم ، فأمر سليم بقتل كل من وقع بين يديه ، واحداً بعد آخر ، ولم يرحم كبيراً لكبره ، ولا صغيراً لصغره؛ إذ عرف بحبه لسفك الدماء ، فمن قبل قتل أباه وأخوته لأجل العرش . ويبدو أن أغلب من قتلهم كانوا من أهل مصر ، ومع ذلك فقد أبقوه على الخليفة وقضاة القضاة المصريين ، ليستفيد منهم فى غزوته المقبلة لمصر ، وإن أهانهم ووبخهم ، ولم يرع حرمتهم الدينية .

وحدثت معركة حقيقية فى غزة؛ بحيث اعتبر أنه لم تحدث معركة فى الشام ، بعد مرج دابق ، إلا فيها؛ لا سيما وأن نائب الغورى فيها ، كان قد طلب من طومان باى أن يدركه بالعسكر . وبالفعل شرع طومان باى فى إعداد الجند ، وجمع منهم عشرة آلاف . فأرسل إليها بعض المماليك الذين كانوا فى الطباق وهى المدارس الحربية المملوكية - ولم يكونوا قد اشتركوا فى القتال بعد ، كما أرسل إليها بعض الذين هربوا من الأمراء ومماليكهم من مدن الشام الأخرى؛ وإن كانت سمة هؤلاء التباطؤ والتراخى والتقاعد الزائد ؛ بسبب أن طومان باى لم يجد المال

الكافى لينفق عليهم، وأظهر بعضهم الجبن، وأراد أن يهرب من القاهرة؛ بحيث اضطر طومان باى، أن يظهر أنه يذهب بنفسه إلى قتال سليم؛ وليستحثهم طلب منهم القتال عن أعراضهم وأموالهم. كذلك أرسل بعض رماة البنادق من أهل مصر وسودائها - العبيد - فى ثلاثين عجلة تجرها الأبقار، أما رماة المكاحل - المدافع - فقد أرسلهم على الجمال. ولما أراد طومان باى أن يرسل بعض اللصوص والقتلة، الذين كانوا فى السجون؛ فإن ذلك لم يعجب الناس فى القاهرة. فتوجه هذا الجمع غير المتحمس للقتال؛ بقيادة الأمير جان بردى الغزالى؛ ووصل إلى مصر، بعد هزيمة مرج دابق.

أما العثمانيون فقد هجموا على غزة فى أعداد كبيرة، مثل الجراد، لا يحصى عددهم، بقيادة الوزير سنان باشا؛ إذ كان سليم قد ذهب لزيارة بيت المقدس. وقد سلحوا بالمدافع الكثيرة والبنادق، التى حملت على عجلات خشب، تسحبها أبقار وجاموس فى أول العسكر.

وقد انتقم العثمانيون من أهل غزة بسبب أنهم ساعدوا المصريين، فقتلوا منهم ألف إنسان من الرجال والنساء والأطفال؛ أما المماليك الذين نجوا من هذه المعركة - وهم قلة - فإنهم عادوا إلى مصر، وهم فى أسوأ حال؛ بعضهم جاءها راكباً الحمير، وقد فقد سلاحه ومع ذلك؛ فقد كان سريان الإشاعات الكثيرة فى القاهرة السبب الأول فى اضطراب الأحوال فيها، لا سيما أنه بعد هذه الحوادث الجسام؛ وجد بعض العثمانيين فجأة فى وسط القاهرة؛ مما يدل على أن بعضهم فى القاهرة قد سهل دخولهم إليها؛ وإن ادعى هؤلاء أنهم رسل سليم إلى طومان باى، الذى أسرع بالقبض عليهم، وأصدر أوامره بأن لا يأوى أحد عنده غريباً وإلا تعرض للشنق؛ كما زاد من القيل والقال أن امرأة قد حاولت قتل طومان باى نفسه بخنجر؛ وإن لم تعرف التفاصيل؛ فلعلها كانت هى الأخرى من جواسيس العثمانية.

وكادت القاهرة ذاتها تخرب، حينما خرج ممالك الطباقي، وقد غضبوا لمقتل الغورى؛ فعمدوا إلى حرق الأسواق التجارية .

ولكن طومان باى أسرع فاحتجز ممالك الطباقي، وطلب من الأغوات - وهم أساتذتهم - أن يراقبهم ، ويقول ابن إياس عن ذلك؛ لولا همة طومان باى فى ذلك؛ لكانت القاهرة قد خربت عن آخرها .

وراد من مشاكل القاهرة ، أنه بعد هزيمة غزة بالذات، هاجر إلى القاهرة أهالى الشرقية وبليس؛ خوفاً من النهب والقتل إذا ما تحرك العثمانيون نحو مصر؛ فكانت هجرتهم من الكوارث؛ إذ تبع ذلك أن قلت الأقوات، وارتفعت أسعارها، وقل الدقيق والخبز، وتعطلت الطواحين؛ مما جعل طومان باى يغير المحتسب، وهو الموظف المختص بالسوق والتسعير .

يضاف إلى ذلك، أن أحوال طومان باى نفسه فى مصر، كانت هى الأخرى غير مستقرة؛ بسبب أن أمراء الممالك الذين قدموا من الشام بعد هزيمتهم، طمعوا فى أن يتولوا السلطنة من دونه، مثل الأمير سودون ومع ذلك، فلن طومان باى اضطر أن يسجن بعض الأمراء الممالك القادمين من الشام، سيما الذين سلموا قلاعهم بدون قتال، مثل قانصوه الأشرفى نائب قلعة حلب، الذى سلمها من غير حرب وهرب، على الرغم من أنها كانت تحتوى على ذخائر مصر ومالها، فوبخه ثم سجنه، ولكن تمكن بعضهم مع ذلك من أن يهرب إلى سليم، كما حاول جماعة منهم مثل قاسم بك، الصبى الصغير من أسرة سليم، الذى كان قد التجأ إلى مصر، وكانت هناك إشاعة أن غالب عسكر العثمانيين كانوا يميلون له؛ مما جعل طومان باى يسكنه معه فى القلعة .

وحتى الممالك الجلبان، أثاروا لطومان باى متاعب كثيرة. فبعد موت أستاذهم الغورى، لم يعد لديهم وازع لطاعة طومان باى، وسعى بعضهم إلى أن يولى محمد بن الغورى السلطنة، بعد عودته من الشام. وقد أراد طومان باى أن يضع حداً للانقسام فى صفوفهم؛ بقتل محمد هذا، إلا أنه لم يستطع ذلك؛ خوفاً

منهم، ولعل الجلبان أنفسهم لم يتمسكوا بتوليته؛ بسبب صغر سنه، وأن أهل دمشق كانوا قد رفضوا سلطنته أيضاً .

حقاً وإن كانت تبعية طومان باى للسُلطنة شرعية، بناء على التوكيل الذى أظهره يعقوب، أبو الخليفة المتوكل على الله، الذى أسره سليم فى مرج دابق؛ إلا أن يعقوب هذا لم يستطع أن يتخذ لقب الخلافة، ولم يلبث المتوكل نفسه أن يدعو إلى شرعية حكم سليم، وبالفعل كان سليم قد أرسل إلى طومان باى، قبل دخوله مصر، أن الخليفة والقضاة قد بايعوه، فضلاً عن أنه ملك إلى عشرين جداً، بينما طومان باى مملوك يباع ويشترى، ولا تصح له ولاية .

وأخيراً، فإن طومان باى لم يكن يجد المال اللازم للصرف على العسكر والسلاح. فقد كان الغورى أخذ معه كل مال مصر، الذى بلغ مائة مليون - ألف ألف - غير التحف، وتركه فى قلعة حلب، تحت إشراف ابنه، وحتى أمراء المماليك، الذين ساروا معه، كانوا قد أخذوا معهم معظم أموالهم، وتركوها أيضاً فى حلب؛ بحيث أن ما حصل عليه سليم لما دخل حلب لا يحصر .

لذلك لم يجد طومان باى لا درهماً ولا ديناراً فى الخزائن؛ وحتى المال الذى كانبقى فيها، قبل خروج الغورى إلى الشام؛ ربما سرق؛ وأنه بعد انكسار المماليك فى غزة امتنع الفلاحون كذلك عن دفع الضرائب كلية، يبدو أن طومان باى قد أصبح يقدر أهمية البارود وأسلحته، لا سيما أنه قد سمع بمدفعية النفوط المرعبة، كما يسميها ابن إياس - التى كانت السبب فى نصر العثمانيين، فى موقعتى مرج دابق وغزة. فيقول النص: إنه حتى وهو أمير غبية، نائباً عن الغورى، كان قد أظهر همة فى صنع البارود وآلاته. فلما ولى السلطنة، بعد مقتل الغورى، راد عزمه - له عزم شديد - فى سبك المكاحل وعمل البنادق، وأمر طومان باى بصنع مكاحل، بعضها من النحاس، صرف عليها جملة من المال، حيث عرض بعضها أمامه، فكان عددها مائة محملة على عجل من خشب،

يسحب كلا منها زوج أبشار، كما عرض مائتي جمل باروداً ورساصاً، محملة ألفاً وخمسمائة طارقة - جمعها طوارق - لعلها أسلحة نارية أيضاً. كذلك جمع مالا يحصى من الرماة بالأسلحة النارية ؛ حيث كان جلهم من المصريين والسودانيين ؛ الذين يرمون بالمكاحل والبنادق؛ فكانوا دائمي التمرين؛ حتى أن القاهرة كانت ترتج لقتائفهم .

وكان من رأى طومان باى أن يهاجم سليماً فى وسط الطريق؛ ولا يتركه حتى يأتى إلى القاهرة؛ على أساس أن صحراء شرقى مصر وقسوتها؛ من الممكن أن تنهك جيشه ، سيما وأنه لم يأت عن طريق الساحل ، مثلما حدث فى غزوات سابقة. ولكن تحت إلحاح أمراء المماليك، فإنه اضطر أن يطرح استراتيجية المعركة، كما يريد، جانباً وأجبر على انتظار مجئ العثمانيين. ولذلك لم يجد هؤلاء أى مقاومة فى رحفهم على مصر، إلا من بعض العربان، الذين كانوا يميلون بطبعهم إلى النهب والسلب؛ ومع ذلك؛ فإن طومان باى قد أمر بحرق بعض الشون التى تقع خارج القاهرة ؛ حتى لا تقع فى أيدي العثمانيين .

استعد طومان باى لمقابلة العثمانيين بجوار القاهرة - فى المطرية - فى مكان اسمه الريدانية، يقع خارج أسوارها، من ناحية باب النصر، ويمتد حتى جبل المقطم، عبارة عن بعض البساتين والأسواق، إلا أنه فى أواخر عهد المماليك، خرب معظمه ، وأصبح أرضاً جرداء، خالياً من السكان. فكانت المدافع تنقل من مسابكها إلى هذا المكان، وهى مغطاة بالجوخ؛ حيث وضعت الكبار منها، التى كان يجرها ثلاثون أو أربعون من الخيل، على الجبل الأحمر، وهو جزء من جبل المقطم فى هذا المكان؛ بينما صغار المدافع، وكان يجرها أربعة من الخيل.

والمدفعية المصرية، وضعت على قواعد ثابتة، وأصبحت غير قابلة للحركة، وزاد الطين بلة، أنها طمرت فى الرمال عمداً زيادة فى إخفائها، وهى معمرة ؛ حيث قيل إن الذى أمر بوضعها هكذا، هو الأمير جان بردى الغزالى الذى هزم فى

موقعة غزة، فيقول ابن رنبل عنه: إنه كان يوجد اتفاق باطنى بينه وبين خاير بك، الذى خان الغورى من قبل. ويبدو أن طومان باى قد تنبه إلى خيانة الغزالى، فى آخر لحظة؛ فأراد قتله، لولا أن الأمراء منعوه؛ لوصول العثمانية إلى الريدانية فى يوم الخميس ٢٩ من ذى الحجة سنة ٩٢٣ / ٢٢ يناير ١٥١٧. لذلك لما تدفقت العثمانية من تحت الجبل الأحمر بأعداد هائلة بلغت ٢٠٠ ألف أو أكثر؛ بقصد الالتفاف حول المدافع المصرية، بالتواجد من وراء فوهاتنا، ولم توجد فرصة لهذه المدافع لمواجهة العثمانيين، فلم تنطلق إلا واحدة؛ مما أربع العثمانيين، الذين ما لبثوا أن أدركوا عجز مدافع المصريين حينئذ. لم ينتظر طومان باى، وقصد ومعه شجعان فرسان المماليك إلى معسكر سليم، الذى أقيم فى أول الريدانية، فوقعت موقعة مهولة، أعظم من الواقعة التى كانت فى مرج دابق، إذ اقتحمه بشجاعة نادرة، حتى أن المؤرخ ابن رنبل يقول عنه وعن من معه من فرسان. فقتل عدد لا يحصى من أمراء العثمانية وعسكرها، ومعظم الموجودين فى خيمة سليم نفسها، بما فيهم سنان باشا الخادم، الصدر الأعظم؛ الذى بارزه طومان باى وقتله بيده، ربما ظناً منه أنه هو السلطان سليم نفسه، وإن كان سليم لم يكن موجوداً فيها وقتذاك.

وقد حزن سليم على وزيره الكبير حزناً كبيراً، واعتبر فقدته خسارة كبرى، وفكر فى الانتقام وقال: استولينا على مصر، ولكننا فقدنا سنان باشا، خسارتنا فيه لا يمكن أن تعدها دولة.

تمكن العثمانيون من قتل عشرة آلاف من المماليك؛ وبقي طومان باى فى قليل من المماليك والرماة العبيد؛ الذين دافعوا عنه ببنادقهم. فلما تكاثرت العسكر العثمانية عليه، انسحب إلى طرا، قرية فى نواحي القسقاط المجاورة، من كثرة البندق.

وأول من أخبر سليماً بالنصر فى الريدانية كان خاير بك؛ الأمير المملوكى الخائن ، الذى صاحبه فى رحفه على مصر، وأصبح من أقرب أعوانه ، سيما بعد قتل وزيره سنان باشا الخادم. ويبدو أن خاير بك دخل القاهرة قبل سليم، ليستولى على القلعة، التى أخذها بدون مقاومة ؛ إذ لم يكن بها أحد. فلما لحقه سليم، لم ينزلها، وإن أخذ مفاتيحها، وفضل أن ينزل بناحية المقياس فى الروضة ، على شط النيل؛ وبمجرد دخول طلائع العثمانيين القاهرة، شرعوا فى تعقب المماليك فى كل مكان، وحتى فى البيوت والمقابر، فمن كان يقع منهم، تضرب عنقه فوراً، وساعدهم فى ذلك العربان، مما جعل كثيراً من المماليك يتخفون فى رى الفلاحين، أو يلبسون ملابس حرافيش القاهرة، وهم صعاليكها أو فقراؤها. كذلك عمد العثمانيون إلى قتل المصريين بوحشية لا نظير لها، وفى الوقت نفسه، ساد النهب فى القاهرة؛ بحسبة البحث عن المماليك بحيث صار الجند العثمانيون ينهبون ما يلوح لهم؛ فلم يتركوا خيلاً ولا بغالاً؛ ولا أقمشة، ولا قليلاً ولا كثيراً. ولم يمنع النهب؛ إلا بعد ثلاثة أيام متوالية، حينما أمر سليم الإنكشارية - وهم العسكر الخاص - بالخروج من القاهرة ؛ والوقوف على أبوابها. كذلك نادى الخليفة وقضاة القضاة؛ وكانوا قد عادوا إلى مصر مع السلطان سليم؛ بالأمن والاطمئنان؛ والبيع والشراء؛ كما أن سيدى محمد؛ ابن السلطان الغورى؛ قابل سليماً، وحلف له ؛ وأعطى ورقة الأمان .

وقد دخل سليم القاهرة فى يوم الاثنين ٣ من المحرم سنة ٩٢٣ / ١٤ أبريل ١٥١٧، فى موكب حافل، وقد فرشت له على الأرض شقق الحرير تحت حافر فرسه، وكان قدامه الخليفة والقضاة، وقد أحاطت به العسكر بين مشاة وفرسان ، حتى ضاقت بهم الشوارع، وقد حملت راياتها الحمراء شعار الدولة العثمانية، التى أوقدت الشموع على الدكاكين، المسماة الشموع الموكبيات - أى الكبيرة - وإطلاق مجامر العود؛ ومرشاة الماورد .

وكان قد خطب من على منابر القاهرة فى يوم الجمعة ؛ باسم السلطان سليم شاه، بدلاً من الخطبة لطومان باى . فلما وصفه الخطيب بقوله: إنه مالك مكة والمدينة؛ ساءه ذلك ، وأمره أن يخطب به خادماً لهاتين المدينتين، لا مالكا لهما، ومنذئذ أطلق هذا اللقب على سلاطين العثمانية . فكان يخطب له بالآتى: انصر اللهم السلطان ابن السلطان ؛ ملك البرين والبحرين، وكاسر الجيوشين؛ وسلطان العراقين ، وخادم الحرمين الشريفين، الملك المظفر، سليم شاه، اللهم انصره نصراً عزيزاً، وافتح له فتحاً ميبئاً؛ يا مالك الدنيا والآخرة، يارب العالمين .

وقد أخاف السلطان سليم بشكله أهل القاهرة، إذ أن لدينا وصفه؛ مما نقله المؤرخون المصريون المعاصرون له مثل ابن إياس، الذى وصفه وصفاً دقيقاً، بأن له من العمر نحو أربعين سنة أو دون ذلك؛ وأنه مربع القامة، واسع الصدر، ملئ الجسد، كبير الرأس ، درى اللون، له وجه كالبحر؛ وجهه ضيقة؛ واسع العينين، وأنفه كبير وافر ، وله لحية سوداء، حلقت حتى الذقن، شبه بارز، وله عنق قصير «أقنص العنق»، ومكرفس الأكتاف ، وعلى رأسه عمامة صغيرة وقد وجد فيه المصريون خفة ظاهرة ؛ إذ كان فى أثناء ركوبه كثير التلفت .

* * *

نهاية طومان باى

لا يعنى دخول العثمانيين القاهرة أن طومان باى قد انتهى؛ فقد استمر يقاومهم بشدة وضراوة، على الرغم من أن سليمًا كان يملك سلاح البارود المتفوق، الذى كفل له النصر فى جميع معاركه السابقة فى الغرب والشرق؛ مما جعله لفترة يتردد فى أن يستمر فى حربه .

وعلى العكس؛ فإن طومان باى الذى كان يتحلى أصلاً بصفة الإقدام والشجاعة؛ إلا أنه اكتسب فى حربه مع سليم صفة الصبر فى النضال؛ على الرغم من أنه اعتمد على السيف وحده؛ دون سلاح البارود، الذى كان السبب فى هزيمته؛ وهزيمة الغورى من قبل، أو على الأقل لم يجعله سلاحه الأساسى؛ ربما بسبب أن المماليك كانوا دائماً يرفضون هذا السلاح غير الإسلامى الأصل؛ معتمدين أساساً على فروسياتهم .

وبالفعل قرر طومان باى الرجوع إلى القاهرة ، ولم تمض خمسة أيام على انتصار العثمانيين عليه . وفى ليلة الأربعاء، الخامس من المحرم ٢٨ يناير ١٥١٧، بعد صلاة العشاء ، تمكن من تسريب أتباعه فى حاراتها، حتى وصلوا إلى معسكر سليم . حيث أطلق فيه جملاً محملة بمادة مشتعلة؛ مما جعل معسكر سليم يشتعل بالنار، وظن سليم أنه مأخوذ لا محالة . ومالبت العامة من أحياء القاهرة، لا سيما من حى بولاق أن انضموا إليه، فكانوا يرجمون المعسكر العثمانى بالمقاليح وفيها الحجارة ، كما أن بعض رماة البندق من المصريين قد اشتركوا فى القتال أيضاً؛ حيث كان المماليك يسمون هذه الجماعات من أهل مصر بالعبيد؛ حتى لا تكون

لهم صفة الجندية مثلهم . فلاشك أن هذه أول مرة يشترك فيها المصريون فى مقاومة العثمانيين ؛ إذ أنهم بحسهم الوطنى قدروا أبعاد الكارثة ، التى حلت بهم نتيجة لمجئ العثمانيين مصر . فلم يكن من الممكن إذن أن يقفوا سلبين على طول الخط من هذا النضال بين المماليك والعثمانيين ؛ لا سيما وأن أهل القاهرة كان لهم دور إيجابى من قبل فى اختيار طومان باى . فاستمرت مقاومة المماليك ومعهم المصريون أربعة أيام وليالى ، إلى يوم السبت ، حيث ظهرُوا فيها على العثمانيين ؛ حتى صاروا يكبسون أماكن تجمعهم أيضاً وبسبب انتصار طومان باى ؛ فإنه خطب له فى القاهرة فى يوم الجمعة ، مع أنه فى يوم الجمعة الماضية ، كان قد دعى لسليم .

ويبدو أن حرب الحارات التى أكره عليها العثمانيون لم تعد تلائم العثمانيين ، مما جعلهم يلجأون إلى تكتيكهم السابق بالحرب بالبارود وحده ، الذى كانوا يعتمدون عليه فى كل حرب ناجحة ، لتفوقهم فيه . فطلعت الإنكشارية من رماة البندق إلى المآذن ؛ وصاروا يرمون فى كل اتجاه بالبندق الرصاص ، مما أجبر المماليك والأهالى على وقف المقاومة ، لاسيما وأنهم قد تعبوا من القتال المستمر طيلة هذه الأيام دون راحة فانسحب الجميع من القتال ، بما فيهم المماليك بحيث لم يبق إلا طومان باى وحوله رماة البندق المصريين وبعض خاصة مماليكه - مماليك سلطانية - واضطر طومان باى هو الآخر إلى أن ينسحب إلى خارج القاهرة .

وقد انتقم العثمانيون من المصريين بحرق بيوتهم ، وقتلوا منهم فوق عشرة آلاف ، حتى كاد يفنى أهل القاهرة نتيجة لذلك . كذلك قتل العثمانيون كل من وقع فى أيديهم من المماليك ، الذين تخفوا فى بيوتهم أو فى أماكن أخرى ، بلغ عددهم نحو ثمانمائة من الأمراء والمماليك العاديين ، وقد اعتبرت هذه المحاولة الفاشلة من قبل طومان باى ، الكسرة الرابعة للمماليك على أيدي العثمانيين ، بعد مرج دابق وغزة والريدانية ، مما يبين أهمية انتصار العثمانيين فيها . وبالفعل ، فإنه بعد أن استتبّت الأمور للعثمانيين فى القاهرة ، طلع سليم القلعة لأول مرة ، فى موكب حافل ، ارتجت له القاهرة ، وذلك فى يوم الثلاثاء ١١ المحرم (٢ فبراير) .

وقد لجأ طومان باى إلى البهنسا ، وهى غربي النيل فى جنوب القاهرة ، فأقام فيها متخذًا النيل كخط دفاعى له ، بأمل أن يعاود الهجوم فى الوقت المناسب فانضمت إليه فلول المماليك ، وبعض أهالى مصر فى الصعيد ، بلغ عددهم أكثر من عشرين ألفا ، والملاحظ أن بعض الأمراء المماليك الذين انضموا إليه ، كانوا قلة إلا أنهم كانوا فى غاية الفروسية والإقدام يملكون مثله إرادة النضال . فكان على رأس هؤلاء الأمراء ، الأمير شريك - يسميه ابن إياس شادبك - الذى كان مسجونًا فى أيام الغورى ، وأطلق طومان باى سراحه وأشرکه فى حروبه ضد العثمانيين وقد اشتهر الأمير شريك بالأعور ، مع أنه لم يكن كذلك . أو حتى به حول بسبب أنه كان إذا مال بعينه إلى جانب ، كان يياضها أكثر من سوادها ، وعينه طومان باى دوا دارا له ، أى كاتم سره ، وأصبح يقيمه مقام نفسه ، فى جميع أموره ، حتى أنه اشترط على نفسه إن انتصر أن يجعله ولى السلطنة من بعده ، ولدينا وصف الأمير شريك هذا مما يدل على أنه بحكم تكوينه الجسمانى كان فارسا من الطراز الأول ، فهو ليس طويلاً ولا قصيراً ، ولا سميناً ولا رقيقاً ، أعرض ما فيه صدره وأكتافه وذراعه ، وكان له من القوة أن يمسك الفحل من قرنه فيجذبه ، فيعلقه من مكانه ، ويلوى قرونه بيديه ، فيقلبه على جنبه .

وفى أول الأمر ، قرر سليم أن يطاول طومان باى ، بمحاربته بالمماليك من جنسه ، لا سيما الأمراء منهم ، الذين خانوا دولتهم ، وانحاروا له ، حتى من أيام الغورى ؛ وذلك دون أن يحاربه بنفسه فيرسل ضده فى الصعيد جاثم السيفى ، من أتباع خاير بك ، الذى كان فى الأصل كاشقاً للفيوم - أى من يجبى مالها - مع رماة البندق الكثيرين ، عددهم عشرون ألفا ، وكان رحفهم فى المراكب ، فلما التقى بطومان باى ، طلب مبارزته ، فخرج له ، وتمكن من جرحه ، وبعدها أطبق طومان باى وأتباعه على من كانوا فى المراكب وسحقوهم ، وغنموا ما لديهم من البندق وآلات الحرب ، ولم ينج جاثم نفسه إلا بصعوبة .

كذلك أرسل سليم ضده جان بردى الغزالي، أخا روجة طومان باى نفسه، وكان من قبل من أسباب هزيمة كل من الغورى ومن بعده طومان باى فى معاركهما مع العثمانيين، وإن لم يعرف هل كان ذلك عن خيانة، كما يؤكد أغلب المؤرخين المعاصرين، بما فيهم ابن إياس، أو ربما لطموح فى نفسه، وكان الغزالي قد طلب الأمان من سليم بعد الكسرة الأخيرة فى القاهرة، فظهر ومعه نحو أربعمائة مملوك، دقت أعناقهم جميعهم، ربما ثمن الأمان لشخصه. فأرسله سليم ومعه وزيره يونس باشا وقوة من خمسمائة من رماة البندق، فكان الغزالي فى تحركه نحو طومان باى، يبالغ فى إرهاب الأهالى لاسيما العرب منهم بحرق بيوتهم، وسبى الحريم والأولاد، ويبيعهم كما يباع الرقيق، مما أغضب يونس باشا، الذى تركه وحده يعيث فساداً. فلما لحق الغزالي بطومان باى، تمكن من قتل عشرة من فرسانه، ودفعه غروره أن يطلب مبارزته، فخرج له طومان باى وقلبه عن ظهر فرسه، ووضع السيف فى نحره، وأراد أن يقتله، لولا أنه استرحمه بحكم القرابة، وحلف له أنه لا يحاربه أبداً، وفى الوقت نفسه، لجأ سليم إلى الحيلة مع طومان باى، فأرسل إليه أماناً مع قضاة مصر، يصحبهم مندوب عن الخليفة، يعينه فيه على بلاده مدى الحياة، ويرضى منه أن تكون له الخطبة والسكة وحمل الخراج إليه، كما أرسل إلى صديقه شريك الأعور أماناً مماثلاً، يعلن فيه أنه لا حاجة له فى مصر، وأنه يرحل عنها. وربما كان سليم مضطراً إلى ذلك، إذ كان يقدر صلابة طومان باى، أو لعل طومان باى، هو الذى اقترح مثل ذلك، حيث كان قد قوى بكثرة من أتاه من العسكر، وما توافر له من مدد ومؤن وصلته من الإسكندرية بالذات، حتى أشاع أنه راحف إلى الجيزة. وعلى كل حال، فإنه لما عقد طومان باى مشورة، فإن الأمراء المماليك، وعلى رأسهم شريك الأعور، رفضوا بشدة الصلح، وهاجموا رسل سليم وقتلوه، بما فيهم القضاة.

ويبدو أن سليماً وجد أن لا سبيل له مع طومان باى إلا أن يخوض بنفسه

ضده معركة حاسمة جديدة ، وقبل أن يحاربه، قتل جميع الأمراء المماليك المحبوسين فى القلعة، وكانوا نحوًا من الأربعين أو أكثر ، مع أنهم نالوا أمانه بعد معركة القاهرة الأخيرة .

وبعد ذلك ، وضع سليم مدفعيته على شواطئ النيل، لقذف قوات طومان باى فتمكن من أن تعبر النيل، لتقابل طومان باى، وقد حملت البنادق والأعلام، التى كان قد دخل بها القاهرة .

وقد رمى سليم فى المعركة برماة البندق والمدافع، بحيث رزلت الصحارى من حولهما، وكانت نتيجة المعركة أن قتل معظم من كان مع طومان باى من الأمراء والجنود، وبدلاً من أن يساعده الأعراب من قبيلة عزالة كما وعدوه ، فإنهم جروا خلفه بعد هزيمته ، إلا أنه تمكن من أن يتغلب عليهم فى الجيزة ، مع القليل الذى بقى معه .

ويذكر ابن زنبيل شيئاً عجيباً عن طومان باى لم نصادفه لأى سلطان مملوكى آخر من سلاطين المماليك فى مصر، إلا أن له دلالة كبيرة، تبين بحق أن طومان كان يعتبر نفسه مصرياً عربياً، يقاتل فى سبيل مصريته وعرويته، فيذكر أن طومان باى وهو عند أهرام الجيزة - قرض قصيدة طويلة من الشعر العربى، بلغت مائة بيت، كتبها له شريك بيتاً بيتاً ، وعلقها عند الأهرام، تتضمن النوايب التى حلت به وبدولته ، وأنه بحكم المسئولية يقبل قدره، وأنه فعل كل ذلك من أجل مكانة مصر التى شهدت مولد الزمان ومولد الحضارة. وعلى العكس ، فإن سليماً بعد هذا النصر، تفرج على الأهرام وأعجب ببنائها .

بعد هذه المعركة الخاسرة الحاسمة. انسحب طومان باى إلى سَخَا ، حيث كان ينتشر فيها عرب قبيلة عزالة، وربما كان طومان باى منهوك القوى، لا يقوى على الجرى إلى أى مكان آخر، أبعد من ذلك ، أو لأن عرب عزالة قد أصبحوا فى طريقه، وإن كان سرعان ما تركها، بسبب أن عرب عزالة كانوا قد انضموا إلى

سليم فى قتاله ، واتجه إلى إقليم البحيرة ، أو لأنه كانت له علاقة ودية سابقة مع عربها من قبيلة محارب وهم غير قبيلة عزالة - أو ما كانوا يسمون أولاد مرعى ، حيث كان طومان باى هو الذى أطلق شيخها حسن بن مرعى من حبس الغورى ، لما تولى السلطنة .

وبالفعل ، فإن حسن بن مرعى وأخاه شكر ، قد أحسنا استقبال طومان باى ومن معه ، حتى أن حسن بن مرعى قبل يدى طومان باى ، وحلف له بإيمان الطاعة هو وعشيرته . وقد أراد حسن بن مرعى أن ينزل طومان باى فى منزله مبالغة فى الضيافة ، إلا أن طومان باى فضل أن يلجأ ومن معه إلى أحد الأودية المجاورة فى قرية تروجة ، من إقليم البحيرة من ناحية الإسكندرية ، وهى نفس المكان الذى كان قد خرج منه وفد من المصريين ، لاستقبال جوهر الصقلى - قائد الفاطميين - لما قدم من شمال أفريقيا . فهل يا ترى كان طومان باى ينوى أن يترك مصر إلى شمال أفريقيا . وعلى كل حال ، سرعان ما تشاءم طومان باى ، لما هاجمته الكلاب ، وطار سيفه من يده ، وهو يردها عن نفسه .

ولكن سليماً عن طريق جان بردى الغزالى - قريب طومان باى - اتصل بعربان أولاد مرعى ، ووعد حسن بن مرعى ، إن سلمه طومان باى ، فإنه يقدمه على جميع مشايخ العربان فى مصر ، ويجعل أرضه التى فيها إقطاعاً له ، ولا يأخذ منه دراهم ، ويبدو أن حسن بن مرعى ، قد استجاب لطلب سليم ، إذ ما لبث أن جاءت الخيل العثمانية ، لأخذ طومان باى . فقاوم الأمراء القليلون من حول طومان باى على غير جدوى ، وإن استطاع الأمير شربك وحده الإفلات . أما طومان باى ، الذى كان يعرف أنه مأخوذ ، لم يبد أى مقاومة ، حينما أحاطت به العسكر العثمانية ، وهى تقدرأنها قد وقعت على فريسة عظيمة . ولذلك ، جعلوا طومان باى يضع يده اليمنى فوق اليسرى ، وربطوهما من قدام وأوثقوهما ، وقدموا له بغلة وأركبوه عليها ، وقيدوه من تحت بطنها .

وحينما وصلت سليم البشرى بالقبض على طومان باى، وأنه فى الطريق إليه، أبدى ارتياحه العظيم، وقال: الآن ملكنا ملك مصر، وأمر بالزينة فى القاهرة ومصر - الفسطاط - وجعل الطبول والكوسات - نوع من الطبول - تدق فى أرجائهما. فزين الناس مضطرين جميع البيوت والدكاكين، والناس لا تعلم سبب الزينة، وسرعان ما علمت بعد ذلك، وهى لا تكاد تصدق أن طومان باى قد أمسكوه .

ولما وصل طومان باى أمام سليم، استقبله وقد أحاط به خاير بك والغزالي وحسن بن مرعى والوزير يونس باشا: وقد وقفت العساكر العثمانية، على حسب مراتبها، وأسلحتها من البنادق فى أيديها فسلم طومان باى سلام الملوك، فرد عليه سليم كما يجب ، ولم ينتقص مكانه فى سلامه، وقد استمر طومان باى واقفاً ، إلى أن أمره سليم بالجلوس، فجلس . فنظر إليه سليم وتأمله ، فوجد فيه - كما يقول المؤرخ ابن رنبل - كل شيء يشهد بالشجاعة والفروسية وكمال العقل، فقال له معاتباً بشدة: يا طومان باى، كم نهيناك عن القتال، وسفك دماء المسلمين، وإنى أرسلت لك من الشام أن تجعل السكة والخطبة باسمى، وأنت مقيم على مصر، فأبيت ذلك ، وقتلت رسلى، والرسول لا يقتل، بل قتلت قضاة بلادك، ولم تقبل الصلح. كذلك أشار إليه، أنه واجب الطاعة لأنه سلطان ابن سلطان . بينما طومان باى من الممالك، الذين لا يعرفون حتى آباءهم فيناقش طومان باى سليماً وهو فى الأسر، على أساس أنه سلطان مصر، ومعتزاً بالمثل العليا، فلا يتخاذل أو يطلب الرحمة، فيرد: بأنه لم يكن شيء مما جرى من قتل الرسل أو القضاة، قد مر بخاطره، ولا بأمره أبداً، ولا برأيه، وعلى العكس ، أنه لما أرسل إليه من الشام الرسل أكرمهم، ولكن الأمراء هم الذين عملوا على قتلهم، ثم استطرد يقول: إن دولتكم هى التى أقبلت، ودولتى أدبرت، وهذا شيء كتبه الله تعالى، وإنى ما أخذت السلطنة برغبة منى ، وإنما قومي وعسكري اختاروني،

ورغبوا فى أن أكون أنا السلطان عليهم، لما علموا من زهدى فى ذلك، فلما تقلدت عليهم، وجب على أن أرد عنهم. ثم أشار إلى سليم أنه مثله قد تربت نفسه فى العز، ولا تقبل الذل، وقال : وهل لو أرسلت لك أنا وأمرتك أن تكون تحت إمرتى، هل كنت ترضى بذلك، وهل سمعت أن الأسد يخضع للذئب، لا أنتم أفرس منا، ولا أشجع منا، ولكن أنت كنت تستحل قتل المسلمين، وترمى عليهم بهذه المدافع والنيران، فكيف بك إذا وقفت بين يدى رب العالمين، وما من ملك وإن تعاضم ملكه، إلا هو لله عبد أصغر، فما أنا وأنت إلا بجملة العبيد.

ولا شك أن سليمًا قد قرر قتل طومان باى منذ أسره له، وإن استبقاه نحو أسبوع - وربما ١٧ يومًا - تشفيًا فيه، فحب سليم لسفك الدماء كان كبيراً، ولا يتوقف عن قتل أحد. ومع ذلك، فقد قيل إن سليما لم يكن يقصد قتله، وينوى أن يطلقه، أو يأخذه معه إلى بلاده، أو حتى يرسله إلى مكه. ولكنه لما سمع أن الناس لا تصدق بمسكه، حنق من ذلك وتحت نصيحة أمراء المماليك أنفسهم، الذين انحازوا إليه، مثل خاير بك والغزالي، فإنه قرر قتله.

ولدينا صورة قتل طومان باى من شهود عيان: فقد أتوا له ببغلة، وأخرجوه عليها، وأنزلوه على مركب، وعبروا به إلى بولاق. فلما وصلوا به إلى باب زويلة - أحد أبواب القاهرة المشهورة وأهمها - وجدوا حبل الشنق معداً له. فأسرعوا به وأنزلوه عن البغلة، بقصد شنقه من غير مهلة. فتقدم طومان باى الحبال بقلب جسور، وحوله جنود العثمانية مسلولة السيوف، فطلب طومان باى من الناس قراءة الفاتحة له ثلاث مرات، فقرأت الناس معه، ثم قال للجلاد - المشاعلى - اعمل شغللك. فكان الحبل يقطع به مرتين، وفى كل مرة يعلقوه من جديد، وشنق إلى أن مات. ووضعوه فى تابوت، وغسله القاضى، وكفنه من ثياب أرسلها سليم، ثم صلى عليه، ودفن فى فسقية قبة السلطان الغورى، كما

أرسل سليم ثلاثة أكياس من الفضة، تصدقوا بها عليه فكان شنقه فى يوم الأحد ٢١ من شهر ربيع الأول سنة ٩٢٢ / ١٥ سبتمبر ١٥١٧ .

وفى الوقت ذاته، أحضر الأمير شريك، زميل طومان باى المخلص فى نضاله للعثمانيين، وكان هو الآخر قد قبض عليه بالخدعة ، بعد إفلاته فقد قصده هو الآخر أحد أصدقائه العربان، واسمه أحمد بن بقر، شيخ عرب الشرقية، فلما دخل لينام، وكانت له عدة أيام لم ينم ، دخل عليه ابن بقر وأعوانه، وضربه بالنبوت فى رأسه، ووقع عليه الباقي وكتفوه؛ وقد ذهب الغزالي إلى ابن بقر وأحضر شريك، وهو مقيد، وأركبوه على بغل، وقيدوه عليه من تحت بطنه .

فلما وصل شريك أمام سليم، تأمله - كما يقول ابن زنبل ، فوجده من أكمل الرجال، وهيبته ظاهرة عليه، وشجاعته واضحة، ذو استكانة ووقار وهيبة، وضخامة وحشمة. فأراد أن يختبر كلامه، حتى ينظر عقله. فقال له : لم قاتلتنى فقال له: قاتلت عن مالى وعيالى وعرضى وأولادى وكتاب الله، فأمر سليم بضرب عنقه، وجاءت عياله وغلामه، فاستأذنوا فى أخذه فأذن لهم ، فأخذوه وغسلوه ، وصلوا عليه، ودفنوه فى مسجد المدرسة البيبرسية، فكان قتله يوم قتل طومان باى .

يقول المؤرخ ابن زنبل، كان قتل طومان باى له رجة هائلة، وكان الدنيا قد انقلبت بسبب موته ، واعتبر يوم شنقه أشأم الأيام، وارتفع الناس بالضجيج والبكاء والصياح فى كل مكان، ويقول ابن إياس: صرخت عليه الناس صرخة عظيمة، وكثر عليه الحزن والأسف. فكان المصريون من غيظهم يقولون الزجل ، وكثرت المراثيات عليه، ومعظمها من قرض الزجالين والشعراء المصريين .

وبسبب شتى طومان باى على باب زويلة، فإن هذا الباب عرف بباب المتولى أو بوابة المتولى، لعله بسبب أنه كان لقب لطومان باى قبل السلطنة، إذ أن لقب «متولى» ، كان يضاف إلى الوظائف المملوكية المختلفة. وقد اعتاد كل من يمر تحته

أن يتلو صلاة قصيرة على روحه، كما أن رجال الصوفية وأتقياء الناس أصبحوا يسكنونه، وأصبح له شهرة خاصة. كذلك قيل إن بهذا الباب قطعة من الحبل متصلة بخطاف، هي التي شُنت بها طومان باى، وذكرها أحد الرحالين الأوربيين، وعلى كل حال، فإنه منذ قيام الدولة المملوكية، كان يشنق على هذا الباب أعداء الدولة وحتى المجرمون العتاة لا سيما رسل هولاجه الذين كانوا قد شُنقوا عليه، فى أوائل حكم هذه الدولة .

ولم يترك طومان باى غير زوجة واحدة، تزوجت من بعده من رجل مصرى، يقال له الشيخ إبراهيم، بقيت معه إلى أن ماتت، كذلك لم يخلف طومان باى أولاداً ذكوراً، بل ترك ابنة واحدة، عمرها حوالى عشر سنين، توفيت حزناً على أبيها فى العام ذاته. أما عن ثروته، فهو لم يترك شيئاً إلا سيفه، إذ أنه لا يزال موجوداً فى مصر، بالمتحف الإسلامى .

ورداً على شنق طومان باى حاول بعض المماليك الانتقام لمقتله، حيث أن أحد أمرائهم، واسمه قانصوه العادلى، لما سمع بشنق طومان باى، قرر الثأر له، وأن يقتل السلطان سليماً به، واحتال قانصوه بحيلة، فلبس رى العرب، وأخذ معه جماعة من أهل القوة، ونزل إلى مركب ليلاً، وسار بها تحت المقياس، الذى كان يذهب سليم إليه أحياناً، وجعل له سلماً يصعد عليه، ليقتل سليماً بيده. وبالفعل كاد قانصوه أن يصل إلى مكان سليم، إلا أن حرسه كانوا متيقظين، مما جعل قانصوه يرمى بنفسه فى النيل، فأمر سليم الذى تنبه له برميّه بالبندق فلم يصبه، كما تبعته جماعة بقارب، فلحقوه وهو عائم، وقبضوا عليه، ويبدو أن سليماً قد أعجب بجرأة قانصوه ووفائه، فلم يلبث أن عفا عنه، وأخذ معه بعد ذلك إلى إسطنبول .

والقول إن طومان باى حاول بذل الجهد فى سبيل الاستمرار فى النضال إلا أنه قد كان من المستحيل أن تقف الشجاعة وحدها أمام سلاح البارود .

ومع ذلك فقد ظل طومان باى صورة للبطل الفارس الذى تصدى للصعاب مع قلة الإمكانيات .

مصر بعد طومان باى

تغيرت أحوال مصر تغيراً تاماً ، بعد شق طومان باى آخر سلاطين المماليك ، وكان مصر قد طوت بموته صفحة ناصعة فى تاريخها ، لتفتح صفحة أخرى حزينة ، لم يقع مثيل لها من قبل ، بحيث اعتبرت من أبشع الفترات التى مرت بها ، بسبب النتائج التى ترتبت عليها ، لاسيما وأن هدف سليم وخلفه كان القضاء على مقومات مصر السياسية والحضارية ، بجميع جوانبها ، حتى أن جرائمه ضدها بقيت ، ولم تمح من ذاكرة المصريين إلى وقتنا الحاضر .

وقد بقى سليم فى مصر بعد شق طومان باى حوالى ثمانية أشهر ، بعدها غادرها إلى القسطنطينية (أو اسطنبول) . وفى خلال إقامته فى مصر ، أخذ فى زيارة معالمها المشهورة فزار الأهرام ، وأعجب بالمقياس الذى بناه الفاطميون ، لقياس فيضان النيل وأقام فيه وقتاً ، ودخل إحدى الحمامات الكبيرة ، التى امتازت بها القاهرة فى العصور الوسطى ، فكان أحدها يخدم فيه أكثر من مائة شخص ، وأعجب بها .

كذلك صلى سليم فى الجامع الأزهر وحضر الاحتفال السنوى لفتح الخليج ، وذهب إلى الإسكندرية وأمضى بها ثلاثة أيام وقال عنها : إنها إقليم لا نظير له وكانت رحلته فى الذهاب والإياب قد أخذت خمسة عشر يوماً ذهاباً وإياباً .

وكانت الرحلة بسبب وصول الأسطول العثمانى إلى الإسكندرية ، فى يوم الثلاثاء ٢٨ ربيع الآخر (٩٢٣/هـ ١٩ مايو ١٥١٧) ، حيث كان مقرراً أن يشترك فى فتح شواطئ مصر لو طالت الحرب مع المماليك ، فقام بزيارة قطعه البالغ عددها ٣٠١ وحدة ، وأطلقت المدافع من السفن لتحيته .

وفى أثناء إقامته الطويلة فى القاهرة، أصبح يتسلى برؤية خيال الظل، الذى كان أول ظهوره فى مصر فى أيام الفاطميين على ما يبدو.

أما تصرفه الشخصى فى خلال إقامته فى مصر فهو أنه طوالها لم ينصف مظلوماً ولو مرة، وكان مشغولاً بالسكر، ولا يظهر للجمهور إلا عند سفك دم، ويصفه المؤرخون المصريون بأنه كان من طبعه أن لا يثبت على قول، وكلامه ناقض ومنقوض، وأنه ما كان له أمان إذا أعطاه لأحد، بحيث ترك فى نفوس أهل مصر مالم يتعود عليه المصريون من حكاهم، الذين كانوا على خلق وشهامة وخشية لله، لا سيما آخر سلاطينهم طومان باى.

أما عساكره، فكانوا على شاكلته، ليس لهم نظام يعرف، فقد سعى العثمانيون إلى إفقار مصر مالياً بكل الوسائل، بما فيها النهب. فبالإضافة إلى أنهم غنموا كل ما كان حمله الغورى معه من مال وتحف، فلإنهم لما دخلوا مصر عملوا على مصادرة أموال كبار الدولة المملوكية، وحتى مال النساء أيضاً، بما فيهن روجة طومان باى ووالدتها، فأخذوا مالديهما من جواهر وذهب وأوانى فضية ونحاس مكفت «مطعم». وحتى يسود الفقر المصريين جميعاً، فلإنهم منعوا تداول العملة المملوكية، وأصدروا بدلها عملة خفيفة، لا يدخل فيها الذهب والفضة إلا قليلاً، منها عملة ذهبية أو فضية اسمها الأشرفى، كما أباحوا الزغل وهو الزيف، فكانت الإنكشارية تدخل الأسواق وترمى بفضة مغشوشة، ومن رفض قبولها تنهب تجارته أو حتى يشنق ولعل سليماً جمع جميع الذهب والفضة من مصر، فحينما خرج منها خرج ومعه ألف جمل محملة ما بين ذهب وفضة. كذلك ألغى العثمانيون دور سك العملة من مصر، وكانت متشرة فى مصر والشام، بل إن سليماً قد أخذ معه عند عودته إلى إسطنبول معلم سك العملة فى القاهرة.

وفى الوقت ذاته، رسمت سياسة عامة، لنهب كل ما هو قيم فى مصر،

وحمله إلى اسطنبول بالطريق البرى على آلاف الجمال، وفى أعداد لا تحصى من المراكب . فكان أكثر ما نهب من القلعة أو قلعة الجبل - جبل المقطم - التى كانت مقر سلاطين المماليك بالقاهرة، وجمعت فيها تحف عديدة على مدى ثلاثة قرون، فيما عرف بالبيوت أو الخانات أو الدور، وهى الأماكن الواسعة التى استخدمت إما فى خزن البضائع أو فى صنع الأشياء، ولم تكن للسلطان وحده، وإنما للخواص من أمرائه ، حيث تعددت فى أيام المماليك بشكل لم يعرف قبلاً، وتمثل درجة كبيرة من الغنى، بحيث أصبح غناها الفاحش منبعاً للخيال فى قصص ألف ليلة وليلة، منها: الشراب خاناه التى احتوت على أدوات الشراب النفيسة، وأنواع الصينى الفاخر، والطشت خاناه الى احتوت على أدوات غسل الملابس الخاصة بالسلطان والساكين بالقلعة، والفراش خاناه ، وفيها أنواع الخيام والسجاجيد، والسلاح خاناه أو حواصل الذخيرة وفيها كل أنواع السلاح، حتى تلك التى تستخدم فى حفلات السلطان وكلها مطعمة بالذهب والفضة والجواهر، إذ كانت توصف بأنها عجيبة من العجائب ، بها من جميع آلات السلاح من كل نوع حتى من المدافع النحاس، والركب خاناه، حيث يوجد فيها كل ما يتعلق من معدات ركوب الخيل، والطبل خاناه وفيها أنواع الآلات الموسيقية والأعلام، والشكار خاناه وفيها كل ما يتعلق بالطيور وبخاصة تلك التى تستخدم فى الصيد ، هذا غير ما يوجد فى القلعة من خزائن المال والكتب ، وحواصل وأهراء وهى مخازن، واسطبلات للخيل ، ومناخات للجمال، ومطابخ إلى غير ذلك .

فلم يترك سليم فى القلعة شيئاً لم يأخذه منها، حتى رخامها وأعمدتها ، لا سيما تلك التى فى الإيوان ، وهى قاعة الاستقبال الرسمية .

يضاف إلى ذلك أن سليماً شحن إلى بلاده ما أخذه من بيوت الأمراء قاطبة والأعيان، بل نقل إلى بلاده أعمدة عظيمة من الصعيد، وأبواباً مسبوكة من حديد بصناعة بديعة، هذا غير الخيول والنجائب .

ولا شك أن سياسة استغلال جميع موارد مصر على يد العثمانيين، تلك التي بدأت بسليم ، كانت من العوامل التي جعلت مصر تكره هذا الحكم القظيع .

وفى سبيل القضاء على مقومات مصر الحضارية، سعى سليم إلى أن يفرغها من كل نابه فيها، فسحب منها رجالها الحاذقين فى المهن والحياة الحضارية، ليحملهم معه إلى إسطنبول ، بقصد أن يسخرهم فى تعمير بلاده ، فيذكر المؤرخ ابن إياس أسماء هؤلاء التعساء ، الذين تقرر سفرهم من مصر إلى اسطنبول ، حيث خصص فصلاً فى كتابه لمن توجه منهم إلى القسطنطينية على حد قوله، وهم من جميع نواحى مصر، من المسلمين والقبط واليهود على السواء، منهم: أصحاب الحرف والصناعات، كالمهندسين والبنائين والنجارين والحداين والسباكين والفعلة، حيث أخذ سليم من هؤلاء جماعة كبيرة جداً، لا يمكن حصر أعدادهم كذلك أخذ سليم الحذاق من صناع السلاح، أو الذين يشتغلون بصناعة النسيج، وهم من الصناعات الذين كانوا يوجدون فى مصر بكثرة. كما أخذ جماعة من التجار لا سيما تجار خان الخليلي، بما فيهم التجار المغاربة فى مصر، وحتى تجار الشراب «العصير».

يضاف إلى ذلك، أن سليماً قد قضى على رعاة مصر الروحية التي استمرت طوال حكم دولة سلاطين المماليك، بنقل منصب الخلافة إلى اسطنبول، وإن كان يبدو أنه قد فعل ذلك تدريجياً. فبعد موقعة مرج دابق، ربما كان سليم قد وعد الخليفة بأن يسيره إلى بغداد، ليعيد إليها مركز الخلافة، مثلما كان الحال قبل انتقالها على يد المماليك إلى مصر ، بعد أن استولى المغول على بغداد. كذلك لاحظ المؤرخ ابن إياس أن الخليفة المتوكل كان صاحب الحل والعقد فى أول أيام فتح العثمانيين لمصر، وأنه فى مقام سلطان مصر، فى نفوذ الكلمة وظهور العظمة، حتى كانت روجة طومان باى فى بيته .

وبعد أن استفاد سليم من الخليفة المتوكل فى تثبيت فتحه لمصر، تغير خاطره

عليه وأصدر له الأمر بالرحيل إلى اسطنبول ، مع بعض أولاد عمه؛ ربما ليقطع جذور أسرته من مصر نهائياً. فلما وصلوا إلى اسطنبول، فرق سليم بين الخليفة وأبناء عمه، ولا شك أن السلطان العثماني قد وضع قبل سفره الخطوط الرئيسية لكيفية حكم مصر، بعد أن هزم المماليك هزيمة مطلقة، بشنق طومان باي آخر سلاطينهم، إلا أنه قد قرر فجأة، وعلى غير انتظار، أن تعود مصر إلى المماليك ، ولكن تحت سيطرته ، وهو نمط الحكم الذي استمر في مصر، إلى أن سعى الفرنسيون بمجئ نابليون إلى القضاء عليه، وإن تم القضاء عليه نهائياً بتولية محمد على الكبير، حتى أصبحنا نميز بين عصرين في حكم المماليك لمصر، حكم السلاطين الذي انتهى بشنق طومان باي، وحكم أمراء المماليك الذي استمر إلى العصر الحديث. وعلى كل حال، فإن سليماً قبل مغادرته مصر اختار له نائباً فيها من المماليك الجراكسة، هو خاير بك، الذي كان السبب في انتصاره، بخيائته لسلطان الغورى، فقد ورد في كتاب توليته الذي صدر في يوم الاثنين (١٣ من شعبان ٩٢٣ / ٣١ أغسطس ١٥١٧): أعطيك هذه المملكة إقطاعاً لك إلى أن تموت. ونحن لا نعرف كثيراً عن خاير بك، غير أنه جركسى، أبوه اسمه يلباي، وأنه ترقى في أيام قايتباي، كما أصبح في أيام الغورى من أكبر مساعديه، حتى أنه كان أرسله في سفارة إلى اسطنبول في أيام بايزيد الثانى فى ٩٠٣ / ١٥٤٧ ، وظل يترقى فى الوظائف المملوكية، إلى أن أصبح نائباً على حلب، وإن وصف بأنه كثير الحيل والخداع، منها أنه كان دائم الاتصال بسليم، يظهر ذلك بوضوح من الوثائق التركية الرسمية ذاتها، ما جعل سيباى نائب الغورى بالشام يتهمه بالخيانة، وأراد قتله، إلا أن الغورى لم يوافق على ذلك. وقسم السلطان سليم البلاد من الناحية الإدارية إلى مديريات عددها أربع وعشرون مديرية على رأس كل منها أمير مملوكى تكون مهمته فيها جمع المال .

ومع ذلك فإن سليماً لم يكن يثق فى خاير بك أو المماليك ثقة مطلقة بدليل أنه أخذ معه عند مغادرته مصر ابن خاير بك نفسه رهيناً، كذلك قرر سليم مع

خاير بك، خير الدين باشا أحد أمراء العثمانيين وجعله فى منصب نائب القلعة التى كانت مركز حكم مصر منذ أيام الأيوبيين .

وجعل سليم تحت حكم هذا الأمير العثمانى فرقاً من الجيش العثمانى مكونة من خمسة آلاف فارس «سباهى»، ومن الرماة نحو خمسمائة رام ، وقيل عشرون ألف عسكرى من المشاة - الإنكشارية - واثنى عشر ألفاً من الفرسان (السباهية) فكان رؤساؤهم أو ضباطهم يعتمد عليهم الأمير العثمانى، بما فيهم «الآغا»، أى رئيس الفرقة أو نائبه ويسمى «الكخيا أو الكتخدا» . وربما يكون سليم قد أتاح مع خاير بك لبعض السلطة شخص اسمه، هو جائم الحمزاوى، الذى وصف بأنه من أعيان أبناء الناس ولعله من المصريين، فأصبح صاحب الحل والعقد فى البلاد، وإن كنا لا نظن أنه قد استمر له نفوذ كبير ولمدة طويلة، مع وجود خاير بك، وأخيراً، فإن سليماً قد طلب من ابن الغورى ، سيدى محمد، أن يغادر مصر معه، حتى لا يوجد أى مطالب بحق السلطنة المملوكية، لا سيما وأن طومان باى لم يترك أولاداً ذكوراً وقد كان حكم خاير بك فى مصر يتمثل فى تنفيذ أوامر السلطان العثمانى - أو ما كان يسمى أيضاً بالخنكار - واستقبال القصاد من قبله، حيث كانت تزين القاهرة له فى كل مرة ، ويكلف الناس كثيراً فى ذلك ، وتمشى الناس بالشموع الموقدة ، وتطلق النساء الغناء والزغاريد، ويثرن الحلوى والفضة ومجامر البخور والعود، والطبول والزمور، فيشق القاهرة، محاطاً بالعسكر .

كذلك أصبح همه أن يرسل إلى إسطنبول جميع مال مصر، لا سيما المال الذى كان يجبى على الزرع، وهو الخراج ، مصحوباً بالهدايا الكثيرة من خيرات مصر، مثل الخيول والأقمشة والسكر والعصفر والحناء والمربى .

ولما اطمأن سليم إلى أن قبضته أصبحت قوية فى مصر، ووجد أنه لم يعد لبقائه فيها لزوم ، غادرها فى (٢٠ رمضان ٩٢٣هـ / أوائل سبتمبر ١٥١٧م) ، وإن قيل إن سبب مغادرته لمصر أنه قد سمع أخباراً سيئة من بلاده، فاستعجل

العودة إليها، وهو على كل حال لم يعد لمصر بعد ذلك . وقد غادر سليم مصر عن الطريق البرى، فى موكب كبير ، قدامه خاير بك والمماليك الجراكسة، وكان يركب بغلة صفراء من بغال الغورى . فوصل دمشق فى (٢٢ من صفر ٩٢٤هـ / ٤ مارس ١٥١٨م)، وصلى فى المسجد الذى أقامه فيها على قبر محى الدين بن عربى، من كبار المتصوفين . وبعدها سافر إلى حلب، ومنها إلى اسطنبول عاصمة ملكه، فوصلها فى (١٧ رجب ٩٢٤هـ / ٢٥ يوليو ١٥١٨م). فخرج لاستقباله الخليفة العباسى - المصرى - وحتى أعيان مصر الذين كانوا دخلوا إليها، فوجد فى اسطنبول الطاعون، وما لبث أن تركها .

ولما توفى سليم فى يوم الخميس (٩ شوال ٩٢٦هـ / ٢٢ سبتمبر ١٥٢٠م)، أظهر خاير بك والعثمانية الحزن، ونودى فى القاهرة بموته بالتركية والعربية . وعلى العكس ، فإن الجراكسة أظهروا الفرح والسرور لموته ، بسبب أنه كان قد قتل أغلبهم ، كما أظهر المصريون الشماتة، لا سيما وأن موته كان بطيئًا بسبب مرضه، فقد أصيب بحمرة كانت سبب عذابه، ثم موته ، ويقول ابن إياس عن ذلك، إن الله قد أخذه بالعقاب، على ما كان يفعله فى الناس، وتخریب ديارهم .

وبعد سليم ، فإن ابنه سليمان ، الذى عرف مثله بالخنكار - وهو من ألقابهم منذ أيام دولة سلاطين المماليك - فإنه جعل هو الآخر خاير بك نائباً عنه فى مصر . ومع ذلك، فإن سيطرة العثمانيين فى عهد سليمان هذا، كساد يطاح بها فى الشام ، ثم فى مصر، لولا همة خاير بك بالذات، الذى عمل على إحباط ذلك، ليبقى الشام ومصر تحت سيطرة العثمانيين الدائمة، فكان تصرفه بهذا الخصوص يدل على مدى ولائه الذى لا يعحد لهم، وسبب بقاء استعمارهم فى الشرق الأوسط على مدى القرون التالية إلى العصر الحديث .

وعلى كل حال، استمر خاير بك يحكم فى نيابة مصر فى عهدى سليم ومن بعده سليمان، لمدة خمس سنين، بالحديد والنار، بحيث كرهه المصريون كرهاً

شديدًا، وتمنوا موته، إلا أنه لما تزايد المرض عليه فى آخر أيامه، تحرك ضميره، فعمد إلى عتق جواريه وعبيده ومماليكه، وفرق المال على الفقراء والمساكين، وأخرج المحبوسين من الرجال والنساء، وكان عددهم كبيرًا، بما فيهم الفلاحون، وفعل أشياء كثيرة من أنواع البر والصدقات، بحيث ذهل الناس من تصرفه هذا الفجائى، فلم يروا فى أيامه أحسن من هذه الأيام، ولما اشتد المرض عليه، الذى استمر مدة، حيث توفى بنفس مرض سليم الذى كان السبب فى عذابه هو الآخر، وذلك فى يوم الأحد (١٤ ذى الحجة ٩٢٢هـ / ١٥٢٢م).

ونتيجة لاختفاء طومان باى امتدت دولة العثمانيين إلى الشرق العربى أيضاً، فشملت أرجاء شاسعة فى أوروبا وآسيا وأفريقيا، مشتملة على النفوذ والسيطرة فى بحار عديدة: مرمرة وإيجه والأسود والأبيض والأحمر.

ولا شك أنه بسبب اتساع دولتهم إلى أقطار عديدة فى القارات الثلاث يرجع بالدرجة الأولى إلى تطويرهم استخدام الطاقة الحربية، مما جعلهم يقومون بنجاح بحروب مدمرة ضد شعوب كثيرة. ومع ذلك، فلا بد أن نعترف بأن مصر كانت أول من استخدمت البارود كطاقة وطوغته فى الحرب، إلا أنها لم تستخدمه ضد المسلمين بأية حال؛ حتى فى أيامها الحرجة فى صراعها مع العثمانيين، على أساس أنه سلاح محظور استخدامه ضد المسلمين بسبب طاقته التدميرية القوية، بينما العثمانيون لم يترددوا فى استعماله ضد المسلمين وغير المسلمين بدون تمييز.

وكانت سيطرة العثمانيين فى الشرق العربى، مما جعلهم ينقلون إلى أقطاره أسلوبًا جديدًا هو الأسلوب التركى، بدليل أن اللغة التركية صارت هى اللغة الرسمية فى أرجاء البلاد العربية. ومع ذلك، فهل كان العثمانيون فى أول أمرهم يقصدون من فتوحاتهم فى الشرق العربى وحدة إسلامية بزعامتهم، وجدت قبولاً

من شعوبه، بما فيهم شعب مصر، بل إن سليماً كان ينوى أن يجعل اللغة العربية لغة قومية للترك .

ولنا أن نقرر أن التدهور الذى أصاب مصر فى أيام العثمانيين، تبعه بالتالى تدهور مماثل فى الأقطار العربية الأخرى، حيث استقر الحكم العثمانى للشرق العربى زهاء أربعة قرون .

ولقد هزم طومان باى على يد العثمانيين، وبه انتهت دولة سلاطين المماليك، إلا أن سيرته بقيت سيرة عطرة وقصته اعتبرت من قصص البطولات الإنسانية .

* * *

المراجع

ابن زنبيل الرمال : تاريخ السلطان سليم العثماني مع قانصوه الغورى،
دار الكتب المصرية.

إبراهيم طرخان: مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة.

أحمد فؤاد متولى : الفتح العثمانى للشام ومصر.

ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور.

حسن عثمان : مصر العثمانية.

ابن زنبيل الرمال : آخر المماليك.

سعيد عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام.

عبد المنعم ماجد : نظم دولة سلاطين المماليك.

مصطفى زيادة : نهاية السلاطين المماليك فى مصر.

أبو المحاسن : النجوم الزاهرة.

عبد المنعم ماجد : آخر سلاطين المماليك فى مصر.

محمد أنيس: الدولة العثمانية والشرق العربى.

محمد رزق سليم : الأشراف قانصوه الغورى.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
- تمهيد	٥
- المالك في مصر	٧
- طومان باى سلطان	١١
- أحوال مصر	١٦
- التوسع العثمانى	٢٢
- طومان باى وسليم	٣٣
- نهاية طومان باى	٤٢
- مصر بعد طومان باى	٥٢

هذا الكتاب

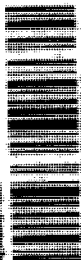
من سار في شوارع القاهرة القديمة اذله ما يراه من
مناجيد وازياء وعمارات وشرفيات وانسبلة تنتمى إلى العصر
المملوكى الذى بهر العالم كله فى العمارة والفروسية .

وكتابنا هذا (خويمان باي) فيه عبق هذا العصر وانه عن آخر
سلاطين المماليك فى مصر .

انه صورة لعصر عجيب وتاريخ لشخصية لا يزال لهن
صوتها بين جنات مصر المعاصرة . وتسجيل لتحول مصر من
حكم المماليك الى الحكم العثماني
وعلى بوابة مصر الشاهقة بآبارويلة (بوابة الفتوى)
شاهد على هذا العصر الذهبى فى العمارة والفروسية والتسلق .

الناشر

Waltham Alexandria



0298673



097
020